الإعجاز العلمي

مجلة فصلية تصدر عن هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسُنَّة - رابطة العالم الإسلامي (العدد الحادي عشر) شوال ١٤٢٢هـ

الخلايا الجذعية
STEM CELLS

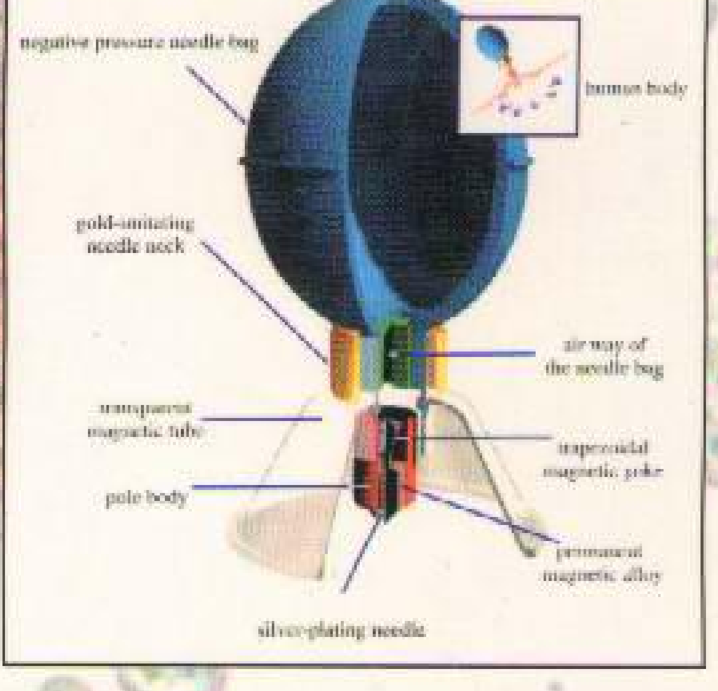

التداوي بالحجامة.. هدي نبوي
الصدفة المزعومة.. أين هي؟
حقيقة نظرية داروين
أسماك ترصد الزلازل
مدينة الملك عبدالعزيز للعلوم والتقنية

ATC
روعة التصميم وجودة الأداء
ضمان لمدة عام
السعر المميز
الجديد من ATC
أجهزة منزلية
رائعة المنزل الجديدة
1600 Watt
قوة شفط هائلة
جاف - ماء
مكنسة بالماء والجاف
موتور بقوة ١٦٠٠ واط
سهولة في التحويل
بين تشغيلها بالماء اوالجاف
حاوية بسعة ١٢ لتر
سلك التوصيل بلف اتوماتيكيا
ATC Proclean 2001
سعة أكبر ومجهود أقل
ATC 9070
مكنسة كهربائية
٤سرعات . موتور بقوة ١٦٠٠ واط
مفتاح بالرجل
مفتاح دائري ٣٦٠ درجة
سلك بلف اتوماتيكيا
ATC Quick1
وعاء ضد الكسر
خلاط و مفرمة لحمة
مفرمة ملوخية
وظائف متعددة للخلاط
شفرة للخفق - غير قابلة للصدأ
ATC 238
سخان سانوتشات من شريحتين
منظم سخانة ثيرموستات
عجلات مطاطية ثابتة - صفائح غير لاصقة
مؤشر مضيء - قفل ليد الحمل
سطح مصقول غير لاصق
ATC 811
مكواة بالجاف وبالبخار
زر لاختيار الطاقة حسب نوع القماش
نافذة شفافة لرؤية حاوية الماء
ATC 830
مكواة بالبخار والجاف
بخاخ قوي للبخار الحار
منظم للبخار
مؤشر مضيء
خزان ماء اضافي
غلاية ماء كهربائية
سعة ١.٧ لتر
بجسم معدني غير قابل للصدأ
قفل اتوماتيكي
مؤشر اتوماتيكي للماء
ATC 1121
مسجلات
مسجل فيديو سي دي
مسجل بشريطين
مدخل السي دي
في الواجهة
راديو استريو ٢ /٣ موجة
شاشة فلورسنت كبيرة
ATC3100VCDR
ATC 3060VCDR
فيديو سي دي
مسجل بشريط
راديو ٢ موجة
كاروكي - إعادة شحن
ريموت كنترول
ATC 3030
مسجل بشريط واحد وسماعتين
سي دي
ذاكرة سي دي قابلة للبرمجة
راديو ستريو بموجتين
فيديو سي دي
ريموت كنترول
مسجل بشريط واحد
راديو ٢موجة
سماعات خشبية
ATC 2100VCDR
ATC 3CDRX
سي دي
ثابتة - رقمي
ضد الصدمات
شاشة بلورية
سي دي بذاكرة قابل للبرمجة
دائرة كهربائية قابلة لاعادة الشحن
ATC VCR5M
فيديو سي دي بالريموت
ستريو عالي الجودة
وظائف معدلة
شاشة بلورية
كاروكي ضد الصدمات
يحفظ في الذاكرة أثناء الإيقاف
بطاريات قابلة للشحن
يعمل ببطاريات ليثيم
ATC 86
مسجل بشريط واحد وسماعتين
توقف أتوماتيكي
راديو٣ موجات
ATC 969
هدفون
راديو ستيريو بموجتينAM/FM
توقف أتوماتيكي
سماعة داخلية
تليفونات
ATC 3021
تليفون لاسلكي
كاشف للرقم المتصل
تردد مزدوج ٤١ / ٤٩ ميغا هيرتز
تخزين ٤٠ رقم
إمكانية إضافة حتى ٤ سماعات لاسلكية
إمكانية البحث في الذكرة
١٢مجموعة تخزين
جميع السماعات كاشف للرقم
مع الأتصال والأستقبال
موسيقى عند التحويل بين السماعات
ATC 121
تليفون لاسلكي
كاشف للرقم المتصل
تردد مزدوج ٤٦ / ٤٩ ميغا هيرتز
تخزين ٤٠ رقم
إمكانية إضافة حتى ٤ سماعات لاسلكية
إمكانية البحث في الذكرة
١٢مجموعة تخزين
جميع السماعات كاشف للرقم
مع الأتصال والأستقبال
موسيقى عند التحويل بين السماعات
ATC 3022
تليفون لاسلكي
كاشف للرقم المتصل
تردد مزدوج ٤٦ / ٤٩ ميغا هيرتز
تخزين ٤٠ رقم
إمكانية إضافة حتى ٤ سماعات لاسلكية
إمكانية البحث في الذكرة
١٢مجموعة تخزين
جميع السماعات كاشف للرقم
مع الأتصال والأستقبال
موسيقى عند التحويل بين السماعات
ATC 93IDM
تليفون كاشف للرقم
نظام ثنائي
ذاكرة تسجيل ٨٠ إتصال
شاشة بلورية لتظهر الرقم والأسم
ATC T90IDM
تليفون كاشف للرقم
نظام ثنائي
ذاكرة تسجيل ٩٥ إتصال
شاشة بلورية لتظهر الرقم والأسم
سماعة
ATC 10IDM
تليفون كاشف للرقم - نظام ثنائي
ذاكرة تسجيل ٨٠ إتصال
شاشة بلورية - سماعة
ATC Y18
نظام ثنائي DTMF/FSK
ذاكرة تسجيل ٤٠ إتصال
شاشة بلورية
الوكلاء بالمملكة العربية السعودية شركة العمودي للتجارة
المكتب الرئيسي جدة ت:٦٧٢٨٢٠٥ ـ ٦٧٣٢٤٣٦ فاكس: ٦٧٠٠٨٩٠ ص.ب ٣٨٥١ جدة ٢١٤٨١ e-mail: atc@atc-usa.net
الرياض ت:٤٧٧٢٢٤٣ فاكس: ٤٧٤٣٤٩٠ / خميس مشيط ت:٠٥٥٦٩٢٣٨٦ / الخبر ت، فاكس: ٨٩٥٠٦٦٤
الوكيل العام بالشرق الأوسط: أي . تي . سي الدولية ـ دبي ـ الإمارات العربية المتحدة ص.ب ٢٩١١٧
منتوجاتنا متوفرة لدى كافة محلات الأدوات الكهربائية والأسواق المركزية

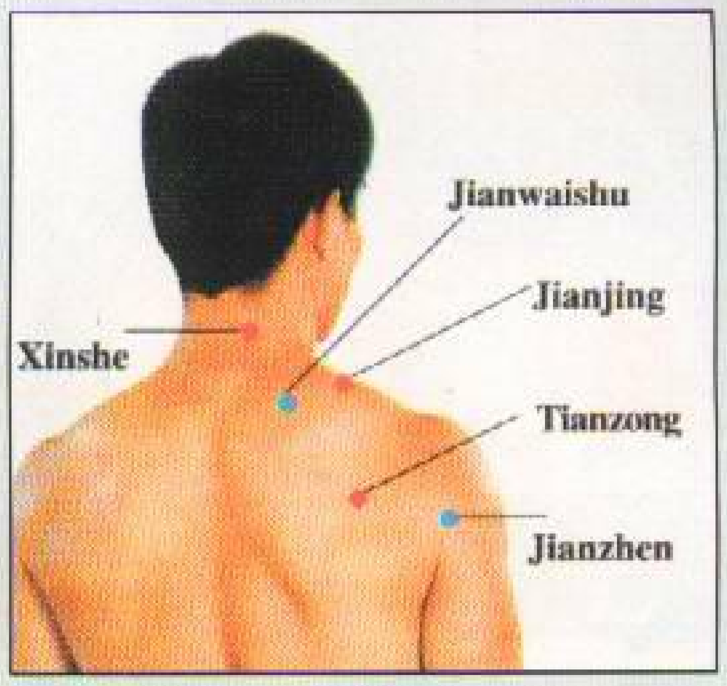

6
التداوي بالحجامة.. هدي نبوي

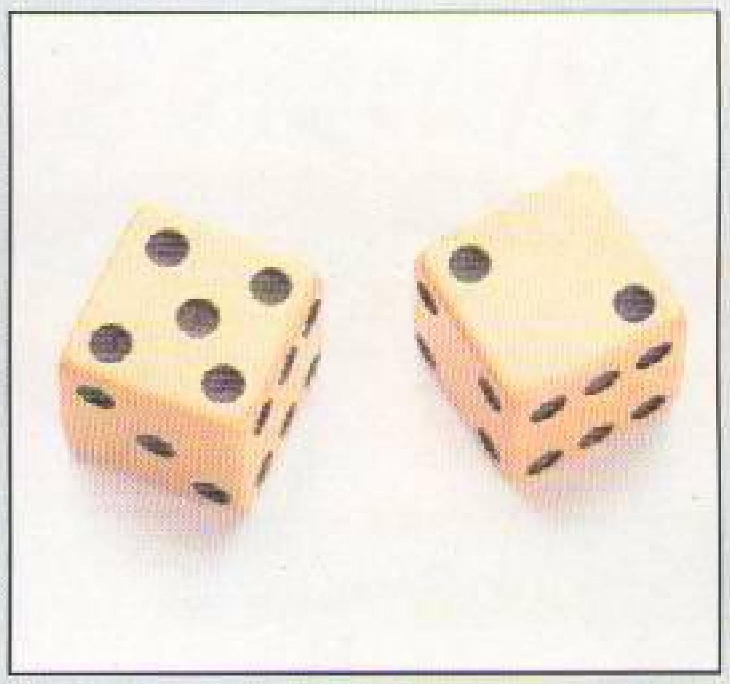

14
الصدفة المزعومة.. أين هي؟

20
أسماك ترصد الزلازل..

في هذا العدد

إشراقة .. بقلم أ.د. زغلول النجار ٤
مدينة الملك عبدالعزيز للعلوم والتقنية ٢٦
من علماء المسلمين.. محمد بن موسى الخوارزمي ٣٨
تحديد القبلة بواسطة الشمس ٤٠
حقيقة نظرية داروين ٤٢
ساحة الجامعات ٥٤
الأسرار الخفية في حياة الخلية ٥٦
صناعة التطبيقات بتقنية الـ NET ٥٨
نقطة ضوء .. وأنه هو رب الشعرى ٦٤

28
الخلايا الجذعية

35
أحكام الجراحة الطبية

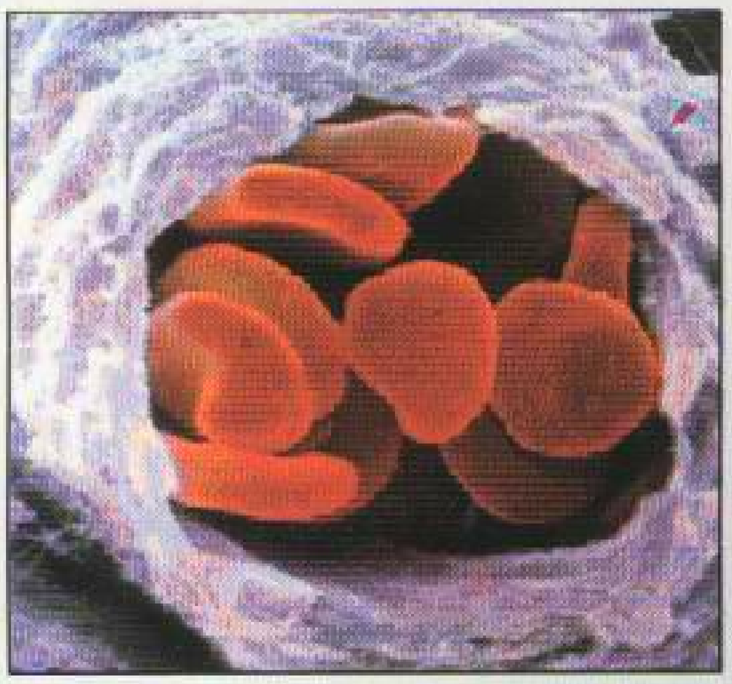

50
خلايا الدم الحمراء

بسم الله الرحمن الرحيم

الإعجاز العلمي

مجلة فصلية تصدر عن هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسُنّة (العدد الحادي عشر) رمضان ١٤٢٢هـ

كلمة التحرير

يحتوي هذا العدد على موضوعين رئيسين، أولهما الخلايا الجذعية الجنينية التي يعلق عليها الأطباء الأمل في علاج العديد من الأمراض المستعصية وحيث أن مصادر الحصول على هذه الخلايا تتنوع فإن الفتوى الفقهية والناحية الأخلاقية تعتمد على طريقة الحصول عليها في ذلك ما هو مباح ومشروع ويُظهر بكل وضوح روح الشريعة الإسلامية في دعم كل ما يحقق حق الحياة واستمرارها ودفع الضرر والمرض عن الإنسان، كما أنه في نفس الوقت يقف موقفاً حازماً وجاداً من التلاعب بالنفس البشرية فيحرم استخدام طريقة الاستنساخ في الحصول على أجنة يتم من خلالها إنتاج خلايا جذعية.

أما الموضوع الثاني فهو التداوي بالحجامة وهي صورة علمية للاعجاز النبوي أغفلها الأطباء والجهات الرسمية في بلاد المسلمين في هذا العصر رغم أنها تمارس نظامياً في معظم البلاد المتقدمة لما ثبت لها من فوائد محققة كوسيلة علاجية فعالة في بعض الأمراض المزمنة.

كما أن في العدد ما له علاقة بالنواحي الايمانية (أسماك ترصد الزلازل) والنواحي العلمية (كريات الدم الحمراء) والنواحي الفكرية (الصدفة... ما هي؟) وساحة الجامعات التي تهدف للتعريف بعلمائنا المتخصصين في المجالات المختلفة.

أ.د. صالح بن عبد العزيز الكريّم
e-mail: skarim@kaau.edu.sa

طريقة الاشتراك في المجلة

- قيمة الاشتراك السنوي لأربعة أعداد من المجلة (٥٠) ريالاً سعودياً.
- تدفع القيمة باسم مجلة الإعجاز العلمي لدى شركة الراجحي المصرفية حساب رقم (٤/٢٤٢٠٠) (فرع ١٧٦/ الجامعة / جدة)
- ترسل صورة من وصل الإيداع على الفاكس رقم ٦٤٠٠٢٢٦ أو ارسالها عن طريق البريد: سعادة رئيس التحرير مجلة الإعجاز العلمي ص.ب ٨٠٠٨٢ جدة : ٢١٥٨٩
- تعبئة البيانات الشخصية: الاسم الثلاثي، العنوان البريدي، رقم الهاتف أو الجوال، ورقم الفاكس إن وجد
- خارج المملكة العربية السعودية: ترسل حوالة بنكية بالقيمة باسم مجلة الإعجاز العلمي على أحد البنوك الموجودة بالمملكة، أو الاتصال بموزع المجلة داخل البلد.
- بالقاهرة الاتصال بمكتب هيئة الإعجاز العلمي بالقاهرة هاتف رقم ٤٠٣٥٩٨٤

هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة
رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة

الأمين العام
د. حسن بن عبدالقادر باحفظ الله

رئيس التحرير
أ.د. صالح بن عبدالعزيز الكريّم

نائبا رئيس التحرير
د. عبدالجواد محمد الصاوي
د. عدنان محمد فقيه

مستشارو المجلة
أ.د. زهير السباعي
أ.د. زغلول النجار
د. محمد علي البار

جميع المراسلات باسم رئيس التحرير على العنوان التالي:
جدة - المملكة العربية السعودية
ص.ب: ٨٠٠٨٢ الرمز البريدي ٢١٥٨٩ فاكس: ٦٤٠٠٢٢٦
alejaz2000@hotmail.com

وكلاء التوزيع الشركة السعودية للتوزيع
المملكة العربية السعودية - ص.ب ١٣٩٥ جدة ٢١٤٩٣
هاتف: ٦٥٣٠٩٠٩ (٩٦٦٢) فاكس: ٦٥٣٢١٩١ (٩٦٦٢)

طبعت بمطابع مؤسسة المدينة للصحافة (دار العلم)
ص.ب ٨٠٧ جدة ٢١٤٢١ - المملكة العربية السعودية

الإخراج الفني
خالد إبراهيم المصري

الأسعار

السعودية ١٠ ريالات - الكويت ١ دينار - الإمارات ١٠ درهم - البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - عمان ١ ريال - اليمن ١٥٠ ريال - مصر ٥ جنيهات - الأردن ١ دينار - سوريا ٥٠ ليرة - المغرب والجزائر وتونس (ما يعادل ١ دولار) - أمريكا وأوروبا ما يعادل ٣ دولار.

الاشتراكات

السعودية ٥٠ ريال للأفراد، ٨٠ ريال للمؤسسات - دول الخليج ٦٠ ريال سعودي، ١٠٠ ريال سعودي للمؤسسات - بقية الدول الإسلامية ٣٠ ريال سعودي للأفراد، ٥٠ ريال سعودي للمؤسسات - أمريكا وأوروبا ما يعادل ٢٠ دولار للأفراد، ٣٠ دولار للمؤسسات.

إشراقة

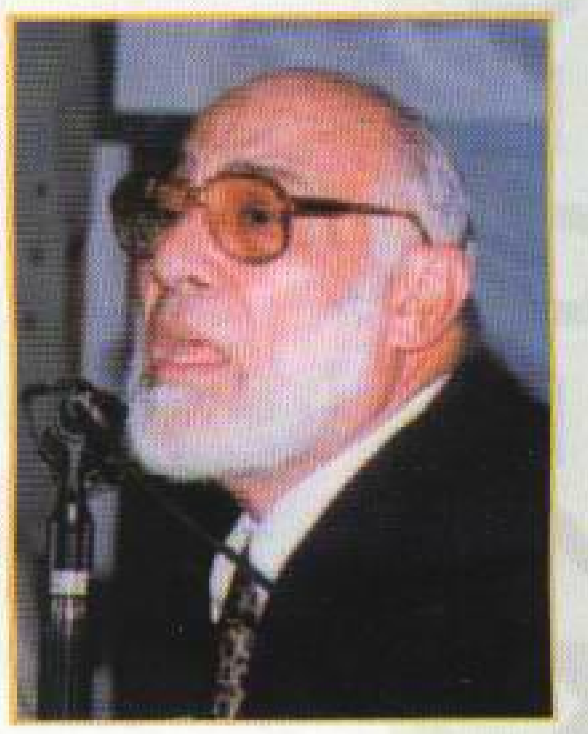

أحمد الله تعالى وأصلي وأسلم على كافة أنبيائه ورسله، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وأخص منهم بأفضل الصلاة وأزكى التسليم خاتمهم أجمعين سيدنا محمد النبي الأمين، وآله وصحبه، ومن تبع هداه، ودعا بدعوته إلى يوم الدين.

فقد من الله تعالى على البشرية بأكثر من مائة وعشرين ألف نبي، واصطفى من هؤلاء الأنبياء أكثر من ثلاثمائة وبضع عشر رسولاً، كانت رسالتهم جميعاً الإسلام كما أخبرنا بذلك النبي الخاتم، والرسول الخاتم صلى الله عليه وسلم، الذي تكاملت في رسالته كل الرسالات السابقة، فختمت ببعثته النبوات والرسالات، وانقطع وحي السماء. ومن هنا فقد تعهد ربنا تبارك وتعالى بحفظ رسالته الخاتمة فحفظت على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها بنفس لغة الوحي (اللغة العربية)، محفوظة حفظاً كاملاً: كلمة كلمة، وحرفاً حرفاً، تحقيقاً لهذا الوعد الإلهي، في الوقت الذي تعرضت كل صور الوحي السابقة إما للضياع التام، أو لقدر من التحريف الذي أخرجها عن إطارها الرباني، وجعلها عاجزة عن هداية البشرية التي ضلت وأضلت....!!!

فرسالات السماء هي هداية من الله تعالى للإنسان في القضايا التي لا يستطيع الإنسان أن يضع لنفسه فيها تصوراً صحيحاً، أو ضوابط صحيحة، لكونها في دائرة الغيب المطلق، أو ضوابط للسلوك، من مثل قضايا العقيدة، والعبادة، والأخلاق، والمعاملات، وهي صلب الدين وركائزه، وهي قضايا إذا خاض فيها الإنسان بغير هداية ربانية خالصة فإنه يضل ضلالاً بعيداً. والذي يتأمل هذه القضايا في القرآن الكريم، وفي سنة الرسول الخاتم صلى الله عليه وسلم يجدها واضحة الدلالة على أن القرآن الكريم كلام الله، وأن النبي الخاتم الذي تلقاه كان موصولاً بالوحي، ومعلماً من قبل خالق السماوات والأرض.

ولكن لما كان في علم الله المحيط بكل شيء أن الإنسان سوف يصل في يوم من الأيام إلى مرحلة كالتي نعيشها اليوم، يتجمع له فيها من المعارف بالكون، ومكوناته، وسننه، ما لم يتوفر لجيل من الأجيال من قبل، فينبهر، باكتشافاته العلمية، وتطبيقاته التقنية، وينغمس في أمور الدنيا إلى آذانه، وينشغل عن أمور الدين وركائزه، أو يتجاهلها، أو ينكرها، فأبقى له الله في محكم كتابه، وفي سنة خاتم أنبيائه ورسله ما يقيم على الإنسان الحجة بمنطقه العلمي ما يحرك القلوب الواعية، والنفوس السوية، والعقول المنصفة، ويردها إلى الإيمان بالغيب الذي بدأت الحضارة المادية المعاصرة بإنكاره، وانتهت بحوثها العلمية إلى الإقرار به.

ومن الإسرار المكنونة في كتاب الله، وفي سنة رسوله صلى الله عليه وسلم قصص عدد من الأمم السابقة، والذي جاء من قبيل استخلاص العبرة، واجتلاء الدرس، ولو أن علماء المسلمين اهتموا بتحقيق ذلك القصص تحقيقاً علمياً دقيقاً لكان من الأدلة الدامغة على صدق الوحي بالقرآن، وصدق نبوة سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام.

ومن هذه الأسرار التي تخص زماننا تلك الإشارات إلى الكون ومكوناته وسننه، والتي جاءت في أكثر من ألف آية صريحة من آيات القرآن الكريم وفي العديد من أقوال المصطفى صلى الله عليه وسلم، والتي نسلم بورودها في مقام الاستدلال على طلاقة القدرة الإلهية المبدعة في الخلق، وفي التأكيد على أن الذي أبدع هذا الخلق قادر على إفنائه، وقادر على إعادة خلقه من جديد، وقد كانت قضايا الخلق والإفناء والبعث من حجج الكافرين، والمتشككين على مر التاريخ، ونسلم أيضاً بورود الآيات الكونية في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم في مقام تنبيه المسلمين إلى أهمية التعرف على الكون، واستقراء سنن الله فيه وتوظيفها في عمارة الحياة على الأرض، وفي حسن القيام بواجب الاستخلاف فيها، ومع هذا التسليم تبقى هذه الإشارات بياناً من الله الخالق فلا بد وأن تكون حقاً مطلقاً، ولو أن علماء المسلمين اهتموا بتحقيق تلك الإشارات تحقيقاً علمياً دقيقاً، وبتقديمها للناس في عصر العلم والتقنية الذي نعيشه لكانت من أنصع الأدلة على أن القرآن الكريم هوكلام الخالق، وعلى النبي الخاتم الذي تلقاه كان موصولاً بالوحي، ومعلماً من قبل خالق السماوات والأرض، مما يثبت المؤمنين على إيمانهم، ويدعو غيرهم إلى الإيمان بهذا الدين الخاتم في زمن الضياع الذي يعيشه إنسان اليوم....!!!

ومن هنا فقد أحسنت رابطة العالم الإسلامي صنعاً بإنشاء هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة للقيام بهذه المهمة الجليلة، وأحسنت هذه الهيئة صنعاً بإصدارها مجلة الإعجاز العلمي التي أصبحت منارة على طريق الدعوة إلى الله بلغة العصر وأسلوبه فبارك الله في هذا الجهد المشكور، ووفق القائمين عليه إلى كل خير في زمن يتعرض الإسلام والمسلمون إلى هجمة شرسة من القوى المادية الكافرة والمشركة والمتشككة باسم العلم، والعلم من دعواها براء، والله الموفق والمستعان، وهو الهادي إلى سواء السبيل،،

أ.د. زغلول النجار

مستشار المجلة

LONGINES

Elegance is an attitude

مجموعة دولتشي ڤيتا

Longines DolceVita

لونجين

الأناقة أسلوب التميز في الحياة

شركة الحصيني التجارية

AL-HUSSAINI TRADING CO.

المركز الرئيسي : جدة - هاتف : ٦٤٣٣٤٠٠ - فاكس : ٦٤٤٥٠٧٦ - ص.ب ٩٠٨٣ جدة ٢١٤١٣

الرياض : ٤٠٥٣١١١ - الخبر : ٨٩٧٢٠٠٦

الفروع : مكة المكرمة - المدينة المنورة - الدمام - ينبع - بريدة - الهفوف - تبوك.

لمزيد من المعلومات يرجى الإتصال على الهاتف المجاني : ٨٠٠-٢٤٤-٢٤٤٤

التداوي بالحجامة .. هدي نبوي

د. عبدالجواد الصاوي
sawi50@hotmail.com

العلاج بالحجامة طريقة معروفة وقديمة عند كثير من الشعوب وعند العرب قبل الإسلام، وقد مدح النبي ﷺ هذه الوسيلة العلاجية وحث عليها، وقد أجريت عدة أبحاث عملية لتقييم هذه الوسيلة علاجيًا، وكان أبرز هذه الأبحاث بحث للدكتور عصام المقدم أخصائي الجراحة العامة بمستشفى التأمين الصحي بالقاهرة أجراه على سبعين مريضًا يعانون من أمراض واختلالات عديدة، وقد عولج بعض هؤلاء المرضى بالحجامة بمفردها وبعضهم بالحجامة والعلاج التقليدي مصاحبًا لها، وقد تحسنت حالة ٥٦٪ منهم تحسنًا واضحًا، وتحسنت حالة ٤٣٪ منهم تحسنًا أقل من الأول، ومَن لم يستفد من الحجامة ١٪ فقط من هؤلاء المرضى، وتؤكد أحاديث النبي ﷺ وهذه الأبحاث العملية أن الحجامة طريقة علاجية فعالة وبسيطة وغير مكلفة لبعض الأمراض وأنها ليست الوسيلة الوحيدة لعلاج جميع الأمراض كما يظن كثير من الناس؛ بل هي إحدى الوسائل العلاجية التي تفيد في بعض الأمراض بنسبة من الشفاء تقل أو تكثر تبعًا لظروف وأسباب عديدة، وسيتناول هذا البحث النقاط التالية:

١. أحاديث النبي ﷺ المتعلقة بهذا الموضوع وأقوال العلماء فيها.
٢. الحجامة وسيلة علاجية قديمًا وحديثًا.
٣. أبحاث عملية تثبت حصول الأثر العلاجي للحجامة.
٤. وجه الإعجاز وتوصية مهمة في هذا الموضوع.

في الحجامة شفاء:

وردت عدة أحاديث عن النبي ﷺ تؤكد أن في الحجامة شفاء:

فعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال النبي ﷺ: (الشفاء في ثلاثة: في شرطة محجم، أو شربة عسل، أو كية نار، وإني أنهى أمتي عن الكي)، رواه البخاري.

وعن جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: (إن كان في شيء من أدويتكم خير ففي شرطة محجم أو شربة عسل أو لذعة بنار توافق الداء وما أحب أن أكتوي)، رواه البخاري.

وفي رواية عن جابر أيضًا: (إن كان في أدويتكم شفاء ففي شرطة محجم)، رواه البخاري.

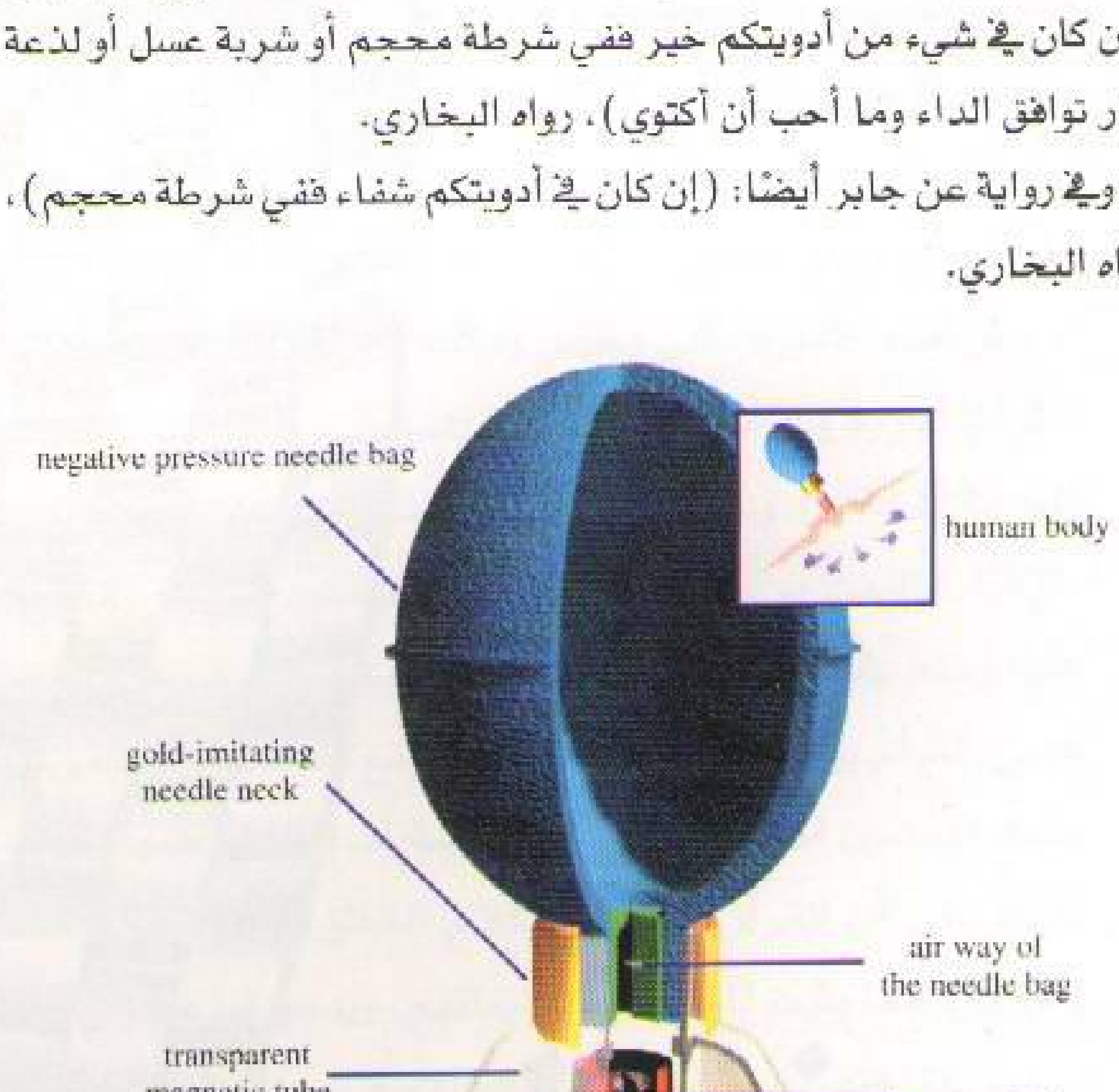

شكل (١): جهاز يجمع بين العلاج بالحجامة الجافة والإبر الصينية

وروى البخاري أيضًا أن النبي ﷺ قال: (إن أمثل ما تداويتم به الحجامة والقسط البحري).

وروى مسلم عن النبي ﷺ قوله: (إن أفضل ما تداويتم به الحجامة أو هو من أمثل دوائكم).

ويلاحظ أن صيغ وصف الحجامة بأنها شفاء اختلفت في روايات الحديث ففي الحديث الأول ورد ذكرها مُعرَّفة بالألف واللام مفيدة العموم (الشفاء في ثلاثة... الحديث)، وللشفاء في لغة العرب معنيان: الدواء، والبُرْءُ، والمراد في هذا الحديث الدواء فكأن ظاهر هذه العبارة يفيد حصر الدواء النافع لكل الأمراض في هذه الثلاثة، وهذا الفهم يتعارض وأحاديث أخرى كثيرة وصف فيها النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وسائل أخرى كالعلاج ببعض الأعشاب والنباتات والعلاج بالألبان وبالماء وغير ذلك، إذًا فالعموم ليس مقصودًا، وقصر الوسائل على الثلاثة فقط ليس بمقصود أيضًا، ويؤكد ذلك بقية صيغ الأحاديث الأخرى التي تتحدث عن نفس الوسائل العلاجية الثلاثة والتي رواها الإمام البخاري أيضًا: ففي الحديث الثاني: (إن كان أو يكون في شيء من أدويتكم خير ففي شرطة محجم.. الحديث)، وفي الحديث الثالث كانت العبارة أكثر وضوحًا: (إن كان في أدويتكم شفاء ففي شرطة محجم)، وفي الحديثين الرابع والخامس كانت الصيغة واضحة في أن الحجامة من أفضل أو من أمثل الطرق العلاجية، وهذا لا يمنع وجود وسائل أخرى لها نفس الفضل ولها نفس المثلية في التداوي بها.

أقوال شرّاح الحديث:

قال ابن حجر العسقلاني: (ولم يُرِدِ النبيُّ ﷺ الحصر في الثلاثة فإن الشفاء قد يكون في غيرها وإنما نبه بها على أصول العلاج).

كما علق ابن حجر على صيغة أول الحديث فقال: ويحتمل أن يكون التقدير: إن كان في شيء أو إن كان يكون في شيء، فيكون التردد لإثبات لفظ يكون أو عدمها، فينبغي أن يحمل هذا الحديث على جملة ما يتداوى به الناس ـ كما قال الخطابي. كما علق ابن حجر على موافقة الكي للداء منها إلى أنه لا ينبغي أن يجربه إلا خبير فقال: قوله: (توافق الداء) فيه إشارة إلى أن الكي إنما يشرع منه ما يتعين طريقًا إلى إزالة الداء، وأنه لا ينبغي التجربة لذلك ولا استعماله إلا بعد التحقق.(١)

وعليه فالحجامة ليست علاجًا لكل الأمراض كما يظن بعض الناس وإنما

هي إحدى الوسائل العلاجية التي قد يتفرد العلاج بها في بعض الأمراض أو تكون مصاحبة للعلاج بوسائل أخرى في بعضها الآخر، وأنه لا ينبغي أن يقوم بإجرائها إلا الخبراء.

أما الأحاديث التي وردت في توقيت عمل الحجامة في أيام ١٧، ١٩، ٢١ من الشهر العربي، والأحاديث التي نهت عن إجرائها في أيام معينة كيوم السبت والأربعاء والخميس، فكلها أحاديث ضعّفها العلماء فلا ينبني عليها اعتقاد معين أو سلوك يمكن أن يكون عائقًا من استفادة المريض من هذه الوسيلة العلاجية وقت الحاجة إليها، أما إذا ثبت ـ بالبحث العلمي ـ أن فائدتها أفضل وأن لها أضرارًا في أيام معينة فيمكن أن يكون هذا مرتكزاً للعمل بها كسنة ثابتة عن النبي ﷺ لذا ندعو إلى مزيد من الأبحاث العلمية في هذا الموضوع.

ما هي الحجامة؟

الْحَجْمُ في اللغة: الْمَصُّ، يقال: حَجَمَ الصبيُّ ثديَ أُمِّه إذا مَصَّه، والحجَّام المصَّاص لفم الْمِحْجَمَة، والفعل منه حَجَمَ يَحْجُمُ بكسر الجيم وضمها.

والْمِحْجَمُ والْمِحْجَمَةُ بكسر الميم: ما يُحْتَجَمُ به سواء كانت الآلة التي يحجم بها ـ أي يمص الدم بها ـ أو الآلة التي يجمع فيها دم الحجامة أو مشرط الحجامة.

آلية إجراء الحجامة:

تعتمد آلية الحجامة على خلخلة الهواء فوق نقاط معينة بالجسم بواسطة آلة مجوفة ذات فتحتين يمص الهواء من إحداهما أو قارورة مفرغة من الهواء ميكانيكيًا أو بواسطة إحراق قطعة صغيرة من القطن فيحدث نتيجة لذلك احتقان للمنطقة الواقعة تحت موضع الحجامة.

أنواع الحجامة:

والحجامة نوعان: حجامة بلا شرط ـ وتسمى حديثًا الحجامة الجافة ـ وفيها يستعمل المحجم للمص أو تفريغ كأس الحجامة من الهواء فتبرز منطقة الجلد تحتها محتقنة بالدماء وهي الحجامة الشائعة في الصين واليابان وبعض الدول الأوروبية وأمريكا، أما إذا استخدم المشرط لتشريط المنطقة المحتقنة من الجلد فتسمى الحجامة بالشرط، وفي الطب الحديث تسمى الحجامة الدامية أو الرطبة، وهي التي كانت شائعة في عصر النبوة وهي شائعة الآن في بعض الدول الأوروبية ـ وعلى الأخص ألمانيا الاتحادية ـ وفيها يفصد الدم بجروح بسيطة لا تتجاوز ٣سم وبعمق يتراوح من نصف إلى واحد ونصف مم.

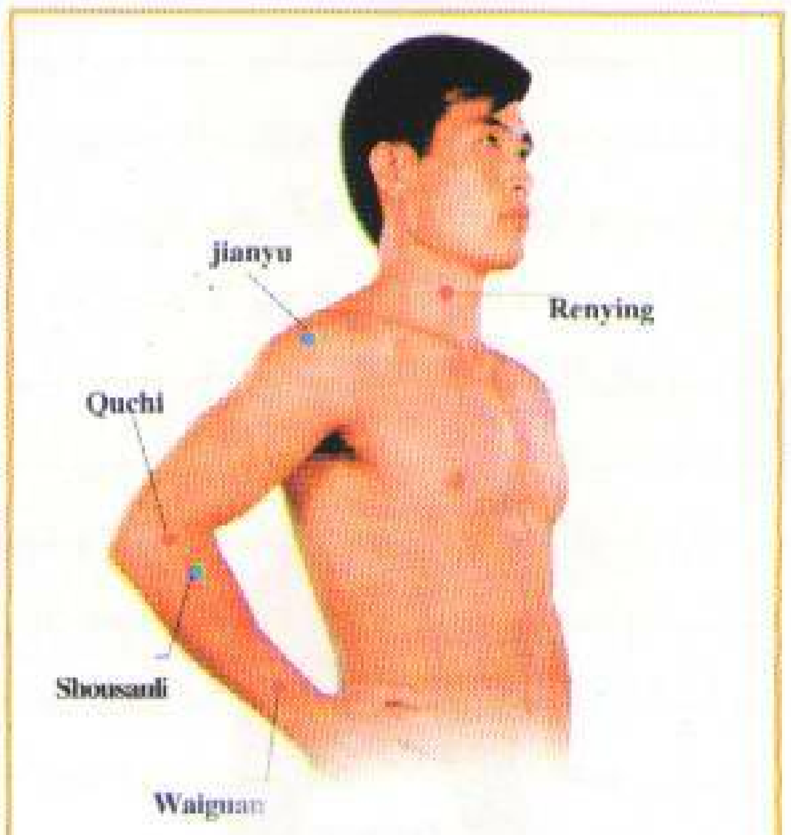

مرض الروم تويد

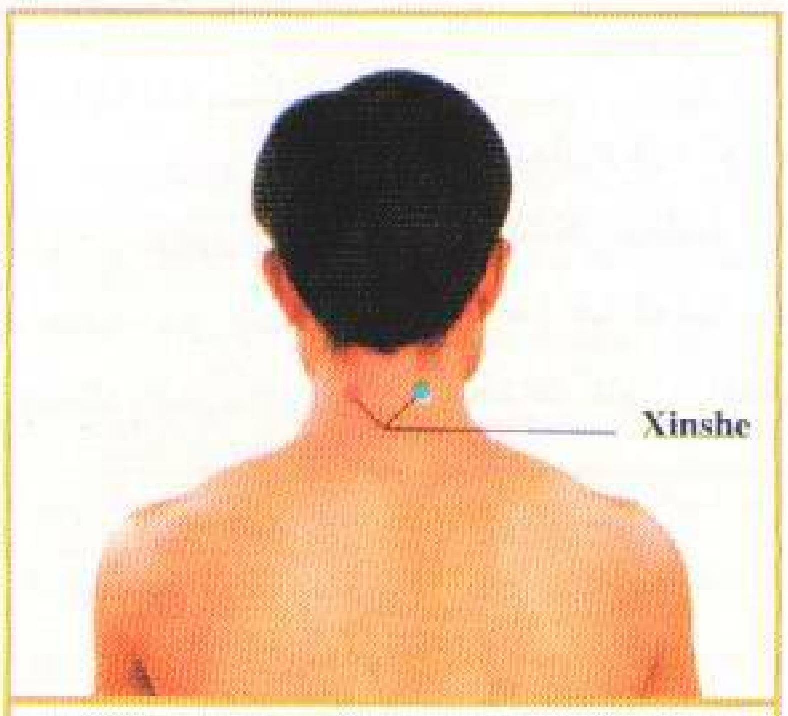

الصداع النصفي
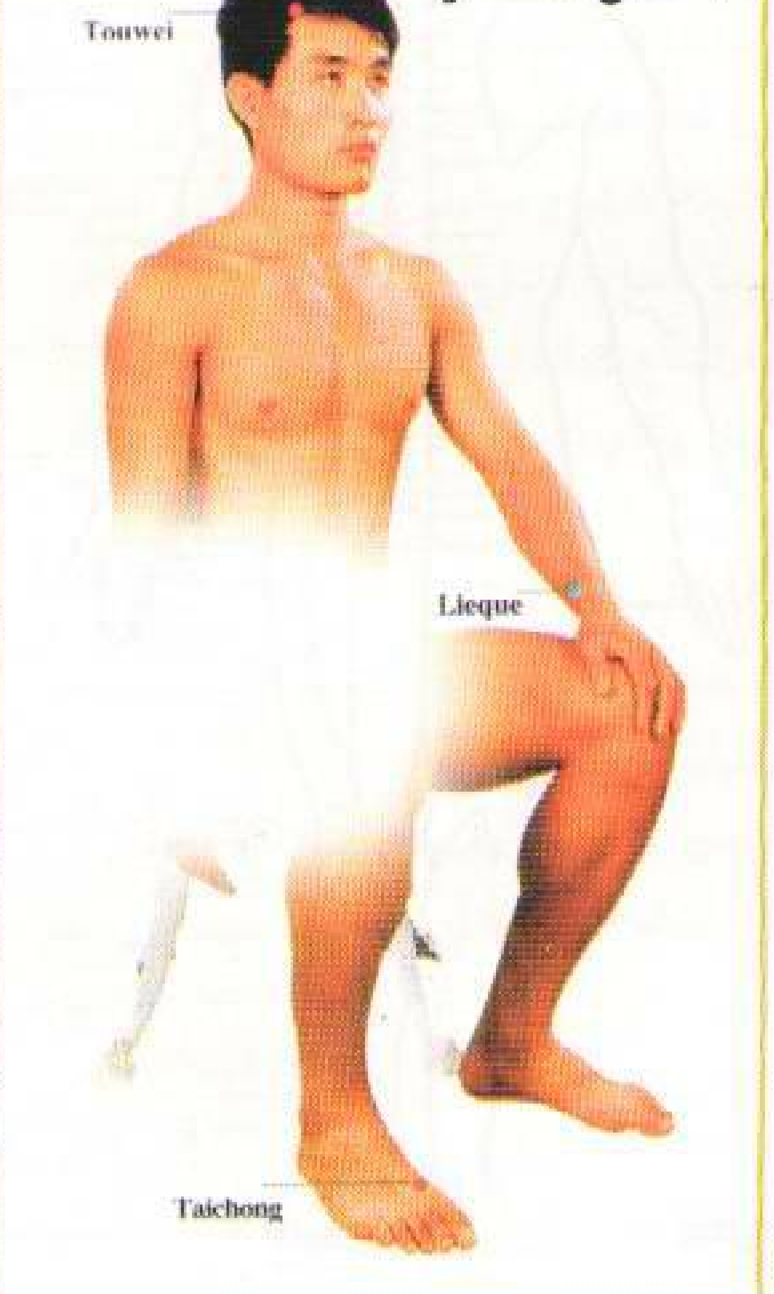

الحجامة قديمًا وحديثًا:

تعتبر أوراق البردي التي سجل فيها قدماء المصريين طريقة العلاج بالحجامة من أقدم الوثائق التاريخية في هذا الموضوع، ووصف اليونانيون القدماء هذه الطريقة العلاجية، وشاع استخدامها عند العرب في الجاهلية وأقر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قومه على استخدام هذه الوسيلة العلاجية، وطبقها وحث على تطبيقها، وقد انتشرت الحجامة في كثير من بلاد المشرق والمغرب في الصين والهند وأوروبا وأمريكا خلال القرون الماضية، وكانت لها مكانتها في الدوريات والمراجع العلمية حتى أواسط القرن التاسع عشر الميلادي، وقد أدخلت الحجامة إلى أوروبا عبر بلاد الأندلس يوم أن كان الأطباء المسلمون ومدوناتهم هي المرجع الأول في علوم الطب، وها هي الحجامة تعود مرة أخرى إلى الظهور بقوة في البلاد الأوروبية والأمريكية بعد ما اختفت من المراجع الطبية في نهاية الستينات من هذا القرن، فصارت تعقد لها الدورات الدراسية في كليات الطب البديل المنتشرة في أمريكا وبعض الدول الأوروبية والصين وبعض دول شرق آسيا.

استطبابات الحجامة في هدي النبوة:

١ ـ تَبَيُّغُ الدم:

قال رسول الله ﷺ: (إذا اشتد الحر فاستعينوا بالحجامة لا يتبيغ الدم بأحدكم فيقتله)، رواه الحاكم وصححه. والتبيغ هو التهيج، والمعنى زيادة الدم أو تهيجه وأكثر ما يحدث في ارتفاع التوتر الشرياني المترافق باحتقان الوجه والملتحمتين والشفتين واليدين والقدمين ويحدث أيضًا في فرط زيادة كرات الدم الحمراء والتي تحدث بأسباب عديدة.

٢ ـ أوجاع الرأس أو الصداع:

عن سلمى ـ رضي الله عنها ـ خادم رسول الله ﷺ قالت: ما كان أحد يشتكي إلى رسول الله ﷺ وجعًا في رأسه إلا قال: (احتجم)، ولا وجعًا في رجليه إلا قال: (اخضبهما)، رواه أبو داود، وهو حديث حسن. وهذا الحديث ـ كما قال الدكتور النسيمي ـ يُحْمَلُ على فرط الضغط الدموي والصداع الوعائي.

٣ ـ الشقيقة (الصداع النصفي):

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ احتجم وهو مُحْرِمٌ في رأسه من شقيقة كانت به)، رواه البخاري.

٤ ـ علاج الوَثْءِ ـ وهو التواء المفصل العنيف:

عن جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما: (أن رسول الله ﷺ احتجم على وركه من وَثْءٍ كان به)، رواه أبو داود وهو حديث حسن.

٥. **علاج الآلام:**

عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه: (أن رسول الله ﷺ احتجم وهو مُحْرِمٌ على ظهر القدم من وجع كان به)، رواه أبو داود وإسناده صحيح. وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه قال: (إن أبا هِنْدٍ حَجَمَ النبي ﷺ في يافوخه من وجع كان به)، رواه البيهقي.

٦. **علاج الخُرَاج:**

عن عاصم بن عمر بن قتادة قال: جاءنا جابر بن عبدالله في أهلنا ورجل يشتكي خُرَاجًا به أو جراحًا، فقال: ما تشتكي؟ قال: خراج بي قد شقَّ عَلَيَّ، فقال: يا غلام ائتني بِحَجَّام، فقال له: ما تصنع بالحجام يا أبا عبدالله؟ قال: أريد أن أعلق فيه محجما، قال: والله إن الذباب ليصيبني أو يصيبني الثوب فيؤذيني ويشق علي! فلما رأى تبرمه من ذلك قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن كان في شيء من أدويتكم خير ففي شرطة محجم أو شربة من عسل أو لذعة بنار، قال رسول الله ﷺ: وما أحب أن أكتوي) قال فجاء بحجام فشرطه فذهب عنه ما يجد. رواه مسلم.

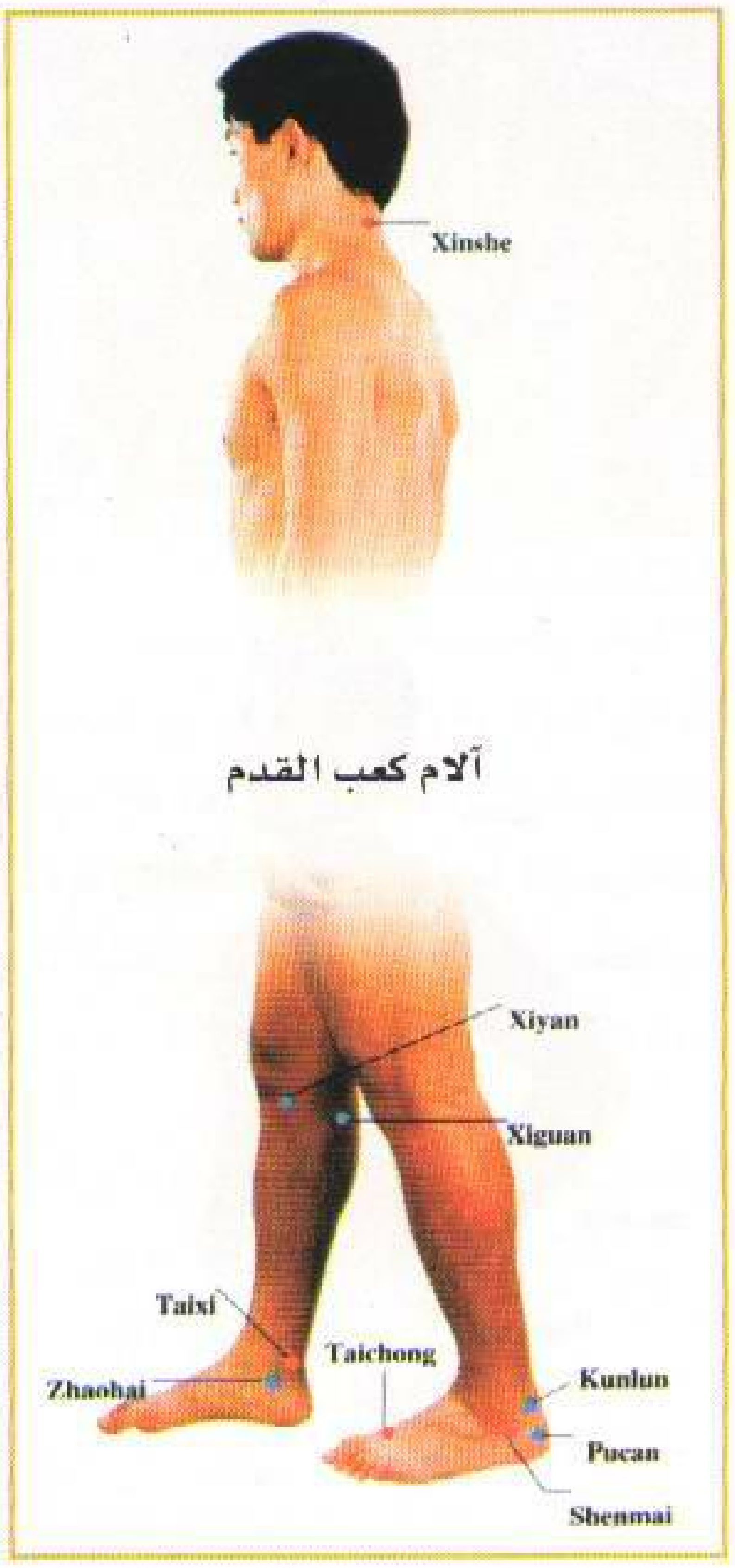

آلام كعب القدم

العلاج بالحجامة في الطب الحديث:

تنتشر في كثير من البلاد الأوروبية والأمريكية جامعات ومعاهد لتعليم الطب البديل أو الطب المكمّل ومراكز علاجية كثيرة مبنية على وسائله المتعددة وتحتل الحجامة موقعًا بارزًا بين هذه الوسائل تعليمًا وتطبيقًا، وقد زُرتُ وبعض الزملاء من الأطباء عددًا من هذه الجامعات والمراكز العلاجية وعاينتُ بنفسي الشفاء لكثير من المرضى.

وقد نشرت مجلة الإعجاز العلمي في عدديها الخامس والسادس تقريراً عن هذه الزيارات الميدانية خصوصاً في الولايات المتحدة الأمريكية.

آلية تأثير الحجامة:

تشابه آلية تأثير الحجامة آلية تأثير الإبر الصينية والنقاط الانعكاسية في الجسم حيث تبنى آلية هذه الوسائل على نظرية مسارات الطاقة في الجسم وهي نظرية صينية قديمة تفترض وجود مسارين للطاقة أحدهما يسمى الين والآخر يسمى (اليانج) وذلك في مفهوم عامة من الطاقة يسمى (تشاي) أو القوة الحيوية، وهذان المساران متكاملان على الرغم من كونهما متعارضين، ويجب أن يكونا في حالة توازن حتى ينعم الجسم بالصحة والقوة.

وهذه القوة الحيوية تدور في الجسم في مسارات تشابه مسارات الدم واللمف والأعصاب، وَسَمَّوْها خطوط الميريديان أو خطوط الطول والعرض، ويمكن رصد هذه المسارات الآن بالطرق الإلكترونية ووسائل أخرى، وهناك ٢٦ دائرة رئيسة من خطوط المريديان وكل دائرة مقترنة بوظيفة أو عضو من وظائف وأعضاء الجسم.

وتشكل خطوط الميريديان شبكة تغطي كل الجسم من الأمام والخلف والأطراف العليا والسفلى، ويوجد عليها ٣٦١ نقطة يمكن استخدامها لإحداث التوازن المفقود في بعضها فيشفى العضو المعطوب شكل (٢).

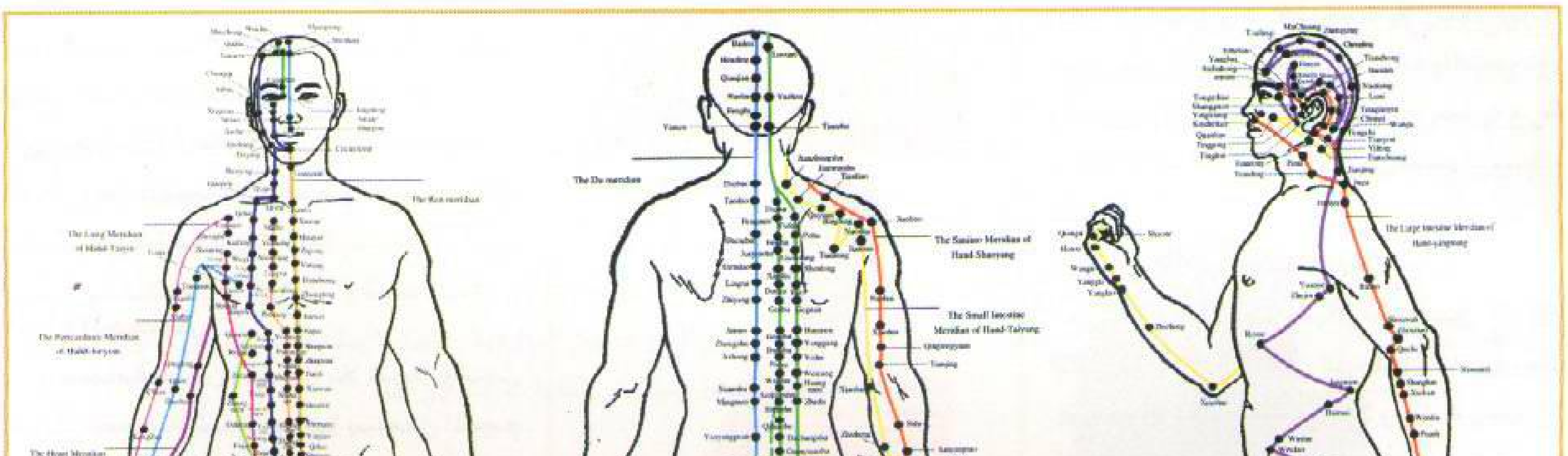

شكل (٢)

آلام الكتف

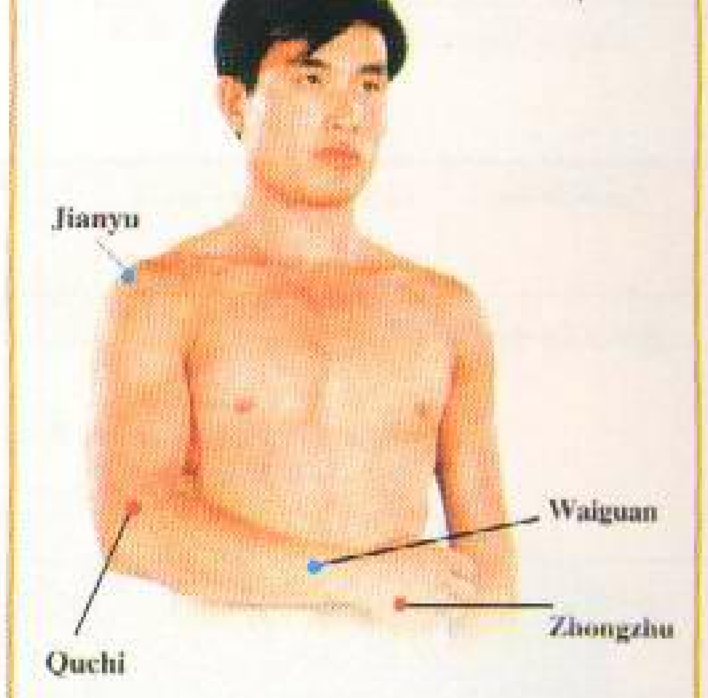

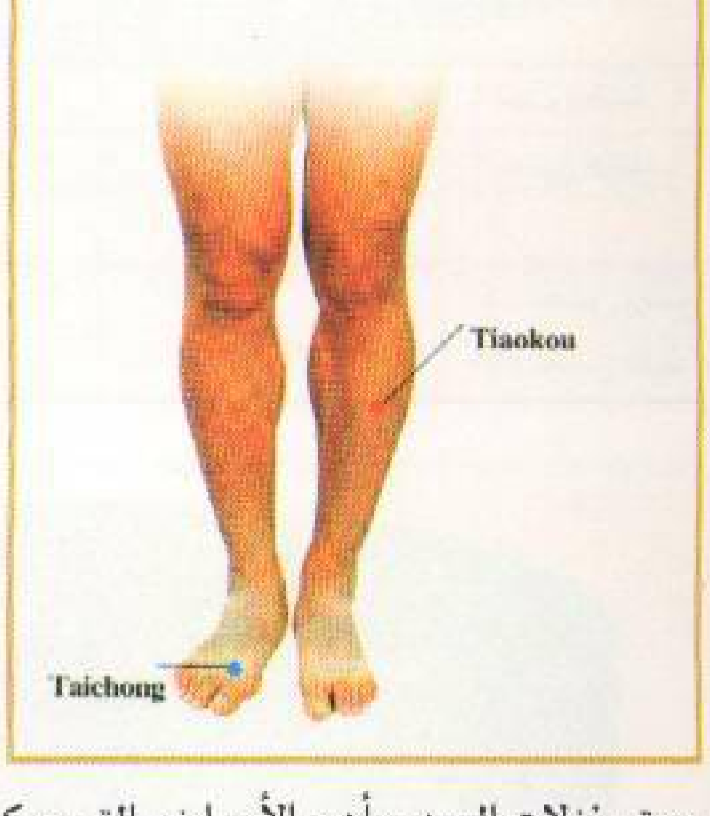

وقد صممت أجهزة حديثة للجمع بين العلاج بالحجامة الجافة والعلاج بالإبر الصينية وتوضع على نفس نقاط الحجامة ونقاط الإبر الصينية انظر شكل (١)

ويعالج بهذه الأجهزة أمراض الشريان التاجي في القلب وارتفاع ضغط الدم، وخفقان القلب، وارتفاع الدهون في الدم، والتهاب المعدة وقرحة المعدة والاثنى عشر، والإسهال المزمن، والتهاب الكبد المزمن، وحصوات المرارة، والتهاب البروستاتا، والعجز الجنسي، والشلل النصفي للوجه، والصداع والشقيقة، وتصلُّب الرقبة وآلامها وعرْق النسا، وآلام أسفل الظهر، والانزلاق الغضروفي وآلام فقرات الظهر، ومرض الروماتويد، وآلام القدم، ودوار البحر والسيارات، والاضطرابات العقلية عند المسنين، وإسهال الرضّع، وآلام الأسنان، وضعف السمع، والتهابات الخصية المصحوبة بتجمع مائي، والربو والالتهابات الرئوية والسعال والنزلات الشعبية، وحتى نزلات البرد. وأهم الأمراض التي يمكن أن تفيد في علاجها الحجامة الرطبة الآلام الروماتيزمية المزمنة، الصداع المزمن نتيجة لارتفاع ضغط الدم، والشقيقة، ضغط الدم المرتفع، البواسير، الإكزيما الحادة والمزمنة وبعض الأمراض الجلدية، هبوط القلب المصحوب بارتشاح في الرئتين، أمراض الصدر والقصبة الهوائية وآلام المرارة والأمعاء وآلام الخصية، وانقطاع الطمث الأَوّلي والثانوي.

كما تساعد الحجامة الجافة والرطبة في تسكين الآلام وتخفيف الاحتقان بصفة عامة في كثير من الأماكن في الجسم خصوصًا في بعض أمراض الرئة الحادة، واحتقانات الكبد، والتهابات الكلية، والتهاب غشاء التامور، والآلام العصبية القطنية والوربية، والوجع الناخس، انظر الصور المختلفة، وهي أمثلة لأماكن الحجامة لبعض الأمراض، وهذا يرجع أيضاً تشابه آليات تأثير الحجامة والوخز بالإبر الصينية.

الأبحاث العملية والسريرية:

أجرى عدد من الأطباء والباحثين عدة أبحاث سريرية على كثير من المرضى خصوصًا أولئك الذين يعانون من أمراض استعصى على الطب الغربي التقليدي علاجها، وقد تابعتُ بعض هذه الأبحاث مع بعض الزملاء: الدكتور علي رمضان استشاري العلاج الطبيعي بمستشفى الطب الرياضي بالقاهرة، والأستاذ أحمد أبو ياسين خبير العلاج بالحجامة، وكانت هناك نتائج ملموسة في تحسن كثير من الحالات المرضية، ومنذ عدة شهور حضرتُ المؤتمر العالمي للطب البديل والذي أقامته إحدى المستشفيات العسكرية بالمنطقة الشمالية بالمملكة العربية السعودية وألقى فيه أحد الزملاء وهو الدكتور عصام المقدم (طبيب جراح) بحثًا عن العلاج بالحجامة وقد كان بحثًا سريريًا نال التقدير من أعضاء المؤتمر، وسأعرض ملخصًا له ليكون مقدمة لنشر بقية الأبحاث في هذا الموضوع بعد اكتمالها - إن شاء الله.

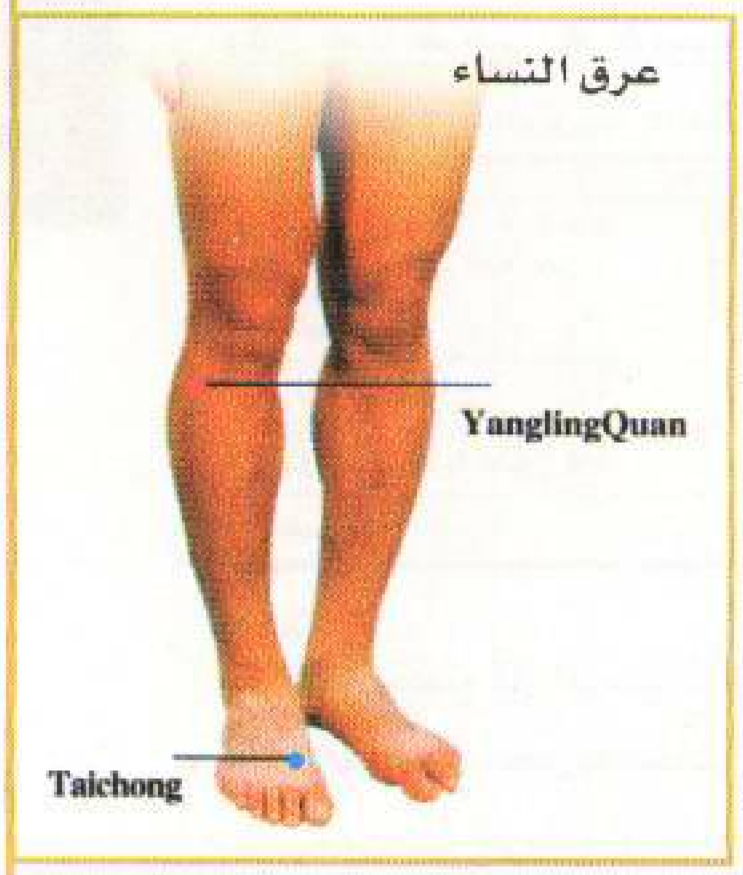

قام الطبيب الباحث بعلاج ٧٠ مريضًا يعانون من اختلالات وأمراض عديدة بطريقة العلاج بالحجامة الدامية، وقد حول هؤلاء المرضى من أطباء ذوي اختصاصات مختلفة بعدما فشلت الطرق التقليدية في علاجهم وكانت قد شخصت هذه الحالات سريريًا ومعمليًا وإشعاعيًا وبالمناظير الطبية قبل بدء العلاج، وقد قسم هؤلاء المرضى إلى ثلاث مجموعات:

المجموعة الأولى: ٢٩ مريضًا يعانون من آلام ناتجة من أمراض طبية وكانت كالتالي:

م	الأمراض	العدد	العمر	الجنس	فترة معاناة المرض
١	عرق النسا مصحوبًا بانزلاق غضروفي في الفقرة القطنية الخامسة والعجزية الأولى	٩	٣٠-٤٠	٩ ذكور – أنثى	من شهر إلى سنتين
٢	انزلاق غضروفي في فقرات الرقبة رقم ٥، ٦ مع ألم عضدي	٣	٣٥-٤٥	٣ ذكور – أنثى	١٠ أيام إلى سنة
٣	التهاب أولي في مفصل الركبة	٦	٥٠-٦٠	٢ ذكور ٤ إناث	سنة إلى ٣ سنوات
٤	طمث ثانوي مؤلم	٥	٣٠-٤٠	– ذكور ٥ إناث	٦ أشهر-سنة
٥	التهاب في عظام مفصل الإصبع الأكبر أو داء النقرس	٣	٤٠-٥٠	٣ ذكور – أنثى	٦ شهور إلى سنتين

وكانت المجموعة الثانية مكونة من ٣٢ مريضًا يعانون من اضطرابات وظيفية مختلفة كالتالي:

م	المرضى	العدد	العمر	ذكر	أنثى	فترة معاناة المرضى
١	صداع نصفي	٧	٢٥-٤٥	٥	٢	٢٢.٥ سنة
٢	التبول اللاإرادي	٥	١٠-١٤	٥	–	١١.٧ سنة
٣	طمث أوّلي مؤلم	٤	١٨-٢٣	–	٤	٩.٤ سنوات
٤	التهاب روماتيزمي عضلي	٨	٣٠-٤٥	٦	٢	٣ أيام-٣ شهور
٥	قلق واكتئاب	٥	٢٠-٥٠	٢	٣	٦ شهور-سنة
٦	متلازمة الأمعاء المضطربة	٣	٤٥-٤٠	١	٢	٦ شهور إلى سنتين
	المجموع	٣٢		١٩	١٣	

وكان عدد المرضى في المجموعة الثالثة ٩ مرضى يعانون من أمراض مصحوبة بتغيرات باثولوجية كالتالي:

م	المرضى	العدد	العمر	ذكر	أنثى	فترة معاناة المرضى
١	أمراض الجهاز الهضمي الالتهابية	٣	٤٠.٣٠	٣	–	١٠.٥ سنوات
٢	خراريج وجمرات والتهابات جلدية متكررة	٦	٥٠.٢٥	٦	–	٣ أيام .٦ شهور
	المجموع	٩		٩		

هذا وقد خضع كل المرضى لأخذ تاريخ مرضي مفصل لهم وفحص سريري وفحوصات مخبرية لتحاشي أي حالات لا يمكن عمل الحجامة لها ثم أجريت الحجامة الرطبة أو الدامية للجميع على أماكن مخصوصة في الجسم بجهاز كهربائي صمم لخلخلة الهواء في كاسات الحجامة، وقد خصص لكل مريض ٤ كاسات بأحجام مختلفة معقمة تعقيمًا جيدًا.

ثم ذكر البحث طريقة عمل الحجامة وأماكن عملها وفق جدول ذكره الجرّاح المسلم ابن القف الذي عاش في القرن السابع الهجري في كتابه (العمدة في الجراحة)، ويلاحظ أن كثيرًا من هذه المواقع ذُكِرت في أحاديث رسول الله ﷺ. وهذه بعض الأماكن وأسماء الأمراض التي يمكن علاجها بالحجامة في جدول ابن القف:

الأسماء	المكان	الاستفادة والمعالجة
الهامة	منتصف الرأس (المفرق)	الوجه. العينان. والحواس الخاصة
النقرة	أربع أصابع فوق خط الشعر الخلفي لقفا العنق	أمراض العين، ثقل الرأس، آلام الأذن، أمراض جفون العين
القمحدوة	المنطقة التي تقابل بروز الفقرة الرقبية السابعة	الهلوسة والدوار
الأخدعان	جانبا الرقبة الخارجية	آلام الأسنان والتهاب اللثة وأمراض العين والأذن
الكاهل	بين الكتفين	ضيق التنفس والقصبة الهوائية
المنكب	خلف عظمة الترقوة	في الجانب الأيسر: الحميات والبنكرياس في الجانب الأيمن: اختلالات الكبد
الذقن		الفم واللسان واللوزتين
الأذن	خلف الأذن	الصداع وثقل الرأس
الثدي	المنطقة تحت الثدي	النزف الرحمي
القطان	المنطقة القطانية	في الفخذ للحكة والخراريج وفي الظهر للبواسير وداء النقرس وداء الفيل والحكة
البطن		القولون المنتفخ
أسفل الصدر		في الفخذ للخراريج والحكة وفي الظهر لداء النقرس وداء الفيل وحكة الظهر
الورك	مفصل الورك	البواسير والنزف الرحمي
المقعدة	المنطقة العصعصية والإليتان	البواسير وآلام الأمعاء وأورامها وتوقف الطمث
الركبة	مفصل الركبة	أورام الركبة والتهاب المفاصل
الفخذ		أمام: أورام الخصية وتقرحات الساق الالتهابية وأورام الرحم ونزيفه الخلف من أعلى: البواسير والناسور ومن أسفل عرق النساء
الساق		انسداد شرايين القلب وتنميل الساق والغرغرينا المبكرة
الرسغ		الحكة المزمنة
الناخد		الأيمن: لأمراض الكبد والأيسر: لاختلالات البنكرياس
القدم	ظهر القدم	قرح الساق والفخذ وانقطاع الطمث وحكة الخصية المؤقتة

ثم قَيَّم البحث نتائج العلاج وفق المعايير التالية:

١. الشفاء التام وذلك عندما تختفي أعراض وعلامات المرض ويرجع المريض إلى ممارسة نشاطاته العادية.

٢. التحسن الواضح وذلك عندما تختفي أعراض وعلامات المرض ويرجع المريض إلى سابق نشاطاته مع تعب بسيط.

٣. التحسن وذلك عندما تخف أو تسكن أعراض وعلامات المرض ويعود إلى سابق نشاطاته بمحدودية بسيطة.

٤. الفشل أو عدم التحسن وذلك عندما لا تتحسن أعراض وعلامات المرض وقد كانت نتائج البحث وفق هذا التصنيف كالتالي:

١ - في المجموعة الأولى: التي كانت تعاني من آلام ثانوية لأمراض طبية عولجت بالحجامة بمفردها أو مصاحبة للعلاج التقليدي وكانت النتائج كما هي مدونة في الجدول التالي:

م	الأمراض	العدد	الحجامة بمفردها	الحجامة مع العلاج	درجة التحسن
١	عرق النساء مصحوبًا بانزلاق غضروفي في الفقرة القطنية الخامسة والعجزية الأولى	٩	٥	٤	٩ تحسن واضح
٢	انزلاق غضروفي في فقرات الرقبة رقم ٥،٦ مع ألم عضدي	٣	٣	–	٣ تحسن واضح
٣	التهاب أولي في مفصل الركبة	٦		٦	٦ تحسن فقط
٤	التهاب في الأعصاب الطرفية للأطراف السفلى	٣	٣		٣ تحسن واضح
٥	طمث ثانوي مؤلم	٥		٥	٥ تحسن فقط
٦	داء الملوك التهاب في عظام مفصل الإصبع الأكبر	٣		٣	٣ تحسن فقط
	المجموع	٢٩	١١	١٨	٥١٪ تحسن واضح ٤٩٪ تحسن فقط

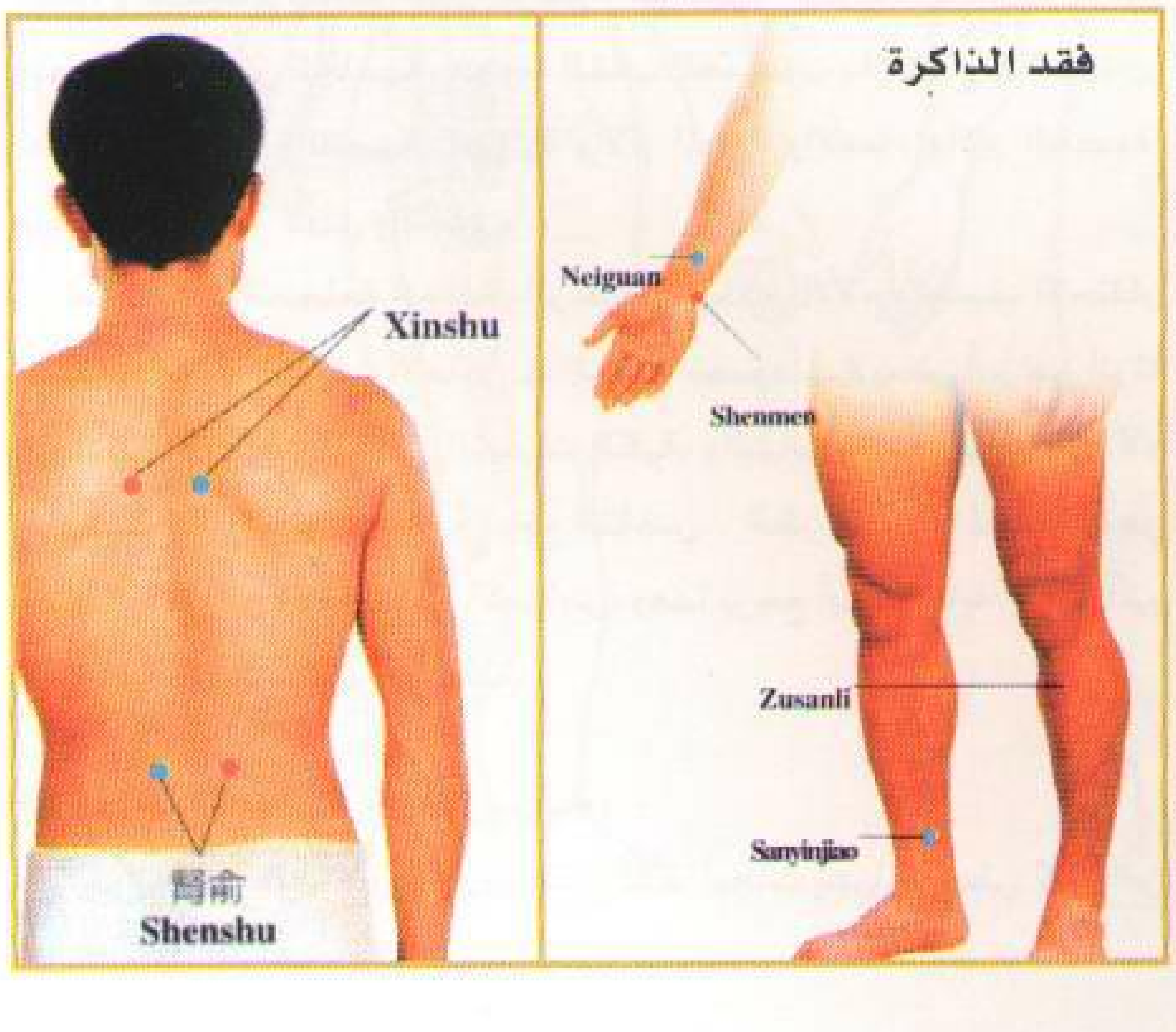

٢. استخدام الحجامة في علاج الاختلالات الوظيفية (المجموعة الثانية):

م	المرضى	العدد	الحجامة بمفردها	الحجامة مع العلاج	درجة التحسن
١	صداع نصفي	٧	٧	٥	٥ تحسن واضح ٢ تحسن فقط
٢	التبول اللاإرادي	٥	٥	٥	٤ تحسن واضح ١ تحسن فقط
٣	طمث أولي مؤلم	٤	٤	-	٤ تحسن واضح
٤	التهاب روماتيزمي عضلي	٨	٨	٦	٨ تحسن واضح
٥	قلق واكتئاب	٥	-	٥	٣ تحسن فقط من القلق ١ تحسن فقط من الاكتئاب ١ فشل من الاكتئاب
٦	متلازمة الأمعاء المضطربة	٣	٣	-	٢ تحسن واضح ١ تحسن فقط
	المجموع	٣٢	٢٧	٥	٧٢٪ تحسن واضح ٢٥٪ تحسن فقط ٣٪ فشل

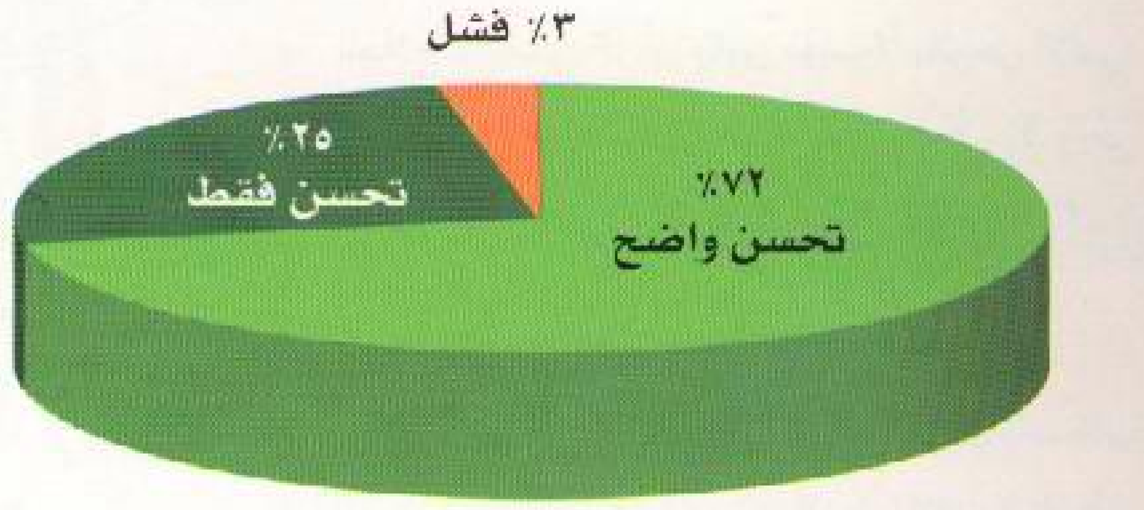

وفي المجموعة الثالثة استخدمت الحجامة في علاج الأمراض المصحوبة بتغيرات باثولوجية واحد فقط تحسن تحسنًا واضحًا (١١٪) وثمانية تحسنوا (٨٩٪) تحسنًا متوسطًا وفق الجدول التالي:

م	المرضى	العدد	الحجامة بمفردها	الحجامة مع العلاج	درجة التحسن
١	أمراض الجهاز الهضمي الالتهابية	٣	-	٣	٣ تحسن فقط
٢	خراريج والتهابات جلدية متكررة	٦	-	٦	١ تحسن واضح ٥ تحسن فقط
	المجموع	٩		٩	١١٪ تحسن واضح ٨٩٪ تحسن فقط

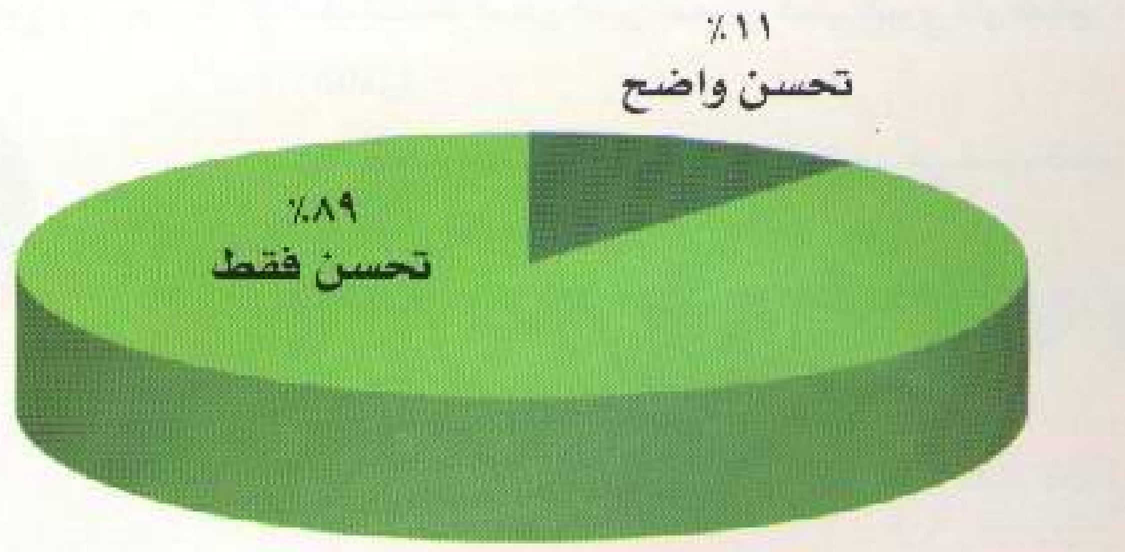

هذا وقد تحسن تحسنًا واضحًا في كل المرضى السبعون ٣٩ مريضًا (بنسبة ٥٦٪) بينما تحسن تحسنا متوسطًا ٣٠ مريضًا (بنسبة ٤٣٪) بينما لم يستجب للحجامة إلا واحد فقط (بنسبة ١٪) وفق الجدول التالي:

م	المرضى	العدد	الحجامة بمفردها	الحجامة مع العلاج	درجة التحسن
١	الألم الناتج عن مرض	٢٩	١١	١٨	١٥ تحسن واضح ١٤ تحسن فقط
٢	الاختلالات الوظيفية	٣٢	٢٧	٥	٢٣ تحسن واضح ٨ تحسن فقط ١ فشل
٣	الأمراض المصحوبة بتغيرات باثولوجية	٩	-	٩	١ تحسن واضح ٨ تحسن فقط
	المجموع	٧٠	٣٨ ٥٤٪	٣٢ ٤٦٪	٥٦٪ تحسن واضح ٤٣٪ تحسن فقط ١٪ فشل

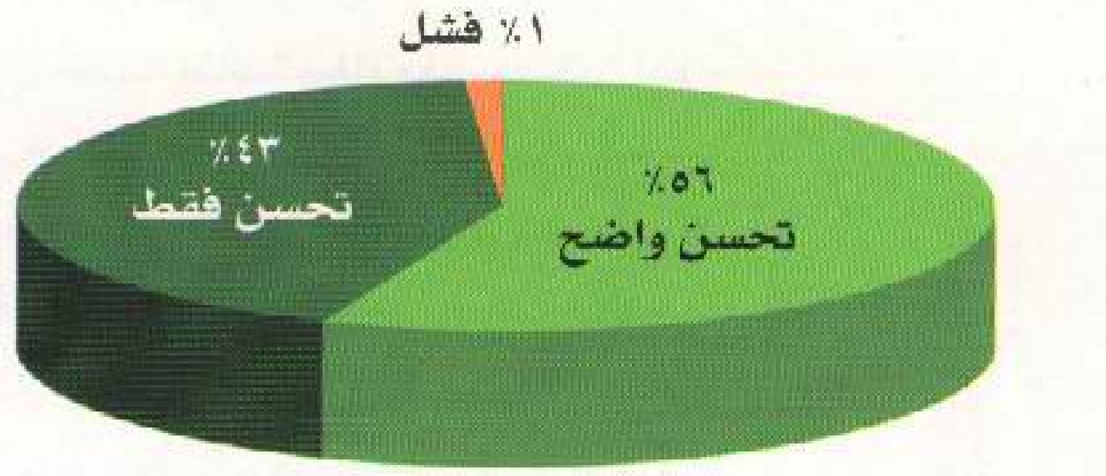

ثم حاول الباحث تفسير عمل الحجامة كوسيلة علاجية فقال: إن البعض يذكر أن آلية عمل الحجامة كآلية عمل الإبر الصينية أو التدليك حيث تؤثر على الأعضاء الداخلية بتنبيه الجلد بواسطة تنظيم الدم فيه أو التأثير على الطاقة الحيوية في مسارات الطاقة أو راجع إلى تنبيهات وإثارات عصبية تؤدي إلى إفراز مادة الإندرفين بأنواعها الثلاثة والتي لها علاقة بتوقف الألم وتحسن حالة المريض، ولخص الباحث في النهاية إلى أن الحجامة طريقة علاجية مؤثرة وبسيطة وقليلة التكاليف ويمكن أن تستخدم بمفردها أو مصاحبة للعلاج التقليدي.

وجه الإعجاز في هذا الموضوع:

١ - وضع النبي - صلى الله عليه وسلم - قواعد علاجية تعتبر أصلاً من أصول العلاج السليم سبق به الإسلام كل القواعد العلاجية الحديثة.

أولها: أن لكل داء دواء وأنه لا يوجد دواء واحد يصلح أن يكون علاجًا لكل الأمراض وهو ما أكده حديث النبي - صلى الله عليه وسلم: (لكل داء دواء فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله)، رواه مسلم.

فيجب أن يفهم حديث: (الشفاء في ثلاثة)، الوارد في الحجامة والعسل والكي، وحديث: (في الحبة السوداء شفاء من كل داء إلا السام) وجميع الأحاديث الأخرى المشابهة في ضوء هذا الأصل العظيم الذي وضعه نبي الإسلام - صلى الله عليه وسلم.

قال ابن حجر العسقلاني: (ولم يُرِدِ النبي - صلى الله عليه وسلم - الحصر في الثلاثة فإن الشفاء قد يكون في غيرها وإنما نبه بها على أصول العلاج).

الأصل الثاني الذي وضعه نبي الإسلام في العلاج: هو الأمر بالتداوي والحث عليه وأنه لا توجد أمراض ليس لها علاج في المفهوم الإسلامي فعلى الطبيب أن يبحث ويجدّ في البحث حتى يصل للدواء.

عن أسامة بن شريك - رضي الله عنه - قال: شهدتُ الأعراب يسألون النبي - صلى الله عليه وسلم: أعلينا حرج في كذا؟ أعلينا حرج في كذا؟، فقالوا: يا رسول الله، هل علينا حرج أن لا نتداوى؟ قال: تداووا عباد الله فإن الله -

سبحانه - لم يضع داء إلا وضع معه شفاء إلا الهرم)، رواه الأربعة واللفظ لابن ماجه.

الأصل الثالث: تحصيل العلم بالطب وممارسة التطبيب شرط في التعرض لعلاج الناس بأي وسيلة علاجية، كما تشير عبارة الحديث «أو لذعة بنار توافق الداء» وتعليق ابن حجر عليها إلى هذا الأصل.

عن عبدالعزيز بن عمر بن عبدالعزيز قال: حدثني بعض الوفد الذين قدموا على أبي قال: قال رسول الله ﷺ: (أيما طبيب تطبب على قوم لا يعرف له تطبب قبل ذلك فأعنت فهو ضامن)، والمراد قطع العروق والبط والكي، أبو داود.

أي إن حصلت هناك أخطاء ممن يتصدّون لعلاج الناس ولم يعرف عنهم دراسة للعلوم الطبية وممارسة للعلاج الطبي منهم فهم ضامنون لكل الأخطاء الناتجة من أفعالهم وإن حسنت نياتهم.

الأصل الرابع: يوجد تنوع في الوسائل العلاجية للأمراض وأحيانًا للمرض الواحد، قد لا يعلمها إلا متخصص دقيق، لذا يجب أن يتحلى المعالج بالأمانة العلمية فالحالات التي لا يعرف علاجًا لها أو يعرف أن غيره أعرف منه بطرق المعالجة يجب عليه أن يحيلها لمن هو أقدر منه.

عن سعد قال: مرضت مرضًا أتاني رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يعودني، فوضع يده بين ثديَيّ حتى وجدتُ بردها على فؤادي فقال: (إنك رجل مفؤود ائت الحارث بن كلدة أخا ثقيف فإنه رجل يتطبب فليأخذ سبع تمرات من عجوة المدينة فليجأهن بنواهن ثم ليلدك بهن)، رواه أبو داود.

الأصل الخامس: الأمراض لها مسببات قد تكون مادية في صورة كائنات دقيقة أو جزيئات سمية أو مسببات نفسية في صورة اضطرابات انفعالية ينتج عنها خلل في المنظومة الهرمونية والجهاز المناعي، لذلك أمر نبي الإسلام - صلى الله عليه وسلم - بالتوقي منها في أحاديث عديدة.

٢ . اختار النبي ﷺ وسيلة العلاج بالحجامة من بين الوسائل العلاجية المنتشرة في بيئته وحث عليها وطبقها على نفسه، ونهى عن ممارسة بعض الوسائل الأخرى، وما اختاره وحث عليه ومدحه، ثبت بالدليل العلمي فوائده كما أخبر - عليه الصلاة والسلام - في قوله: (إن أفضل ما تداويتم به الحجامة، أو هو من أمثل دوائكم).

٣ . أعطى كل وسيلة علاجية وصفًا دقيقًا لدورها في العلاج فوصف الحجامة في مجموع الأحاديث المنقولة عنه - عليه الصلاة والسلام - بأن فيها شفاء، وقد ثبت هذا الشفاء بالأبحاث وبإنشاء المراكز الطبية التي تعالج بالحجامة، وبالكليات الجامعية التي تدرسها وتمنح الشهادات العلمية فيها في معظم دول العالم المتقدم.

لقد أصل نبي الإسلام - صلى الله عليه وسلم - هذه الخيارات، ووضع هذه الأسس والقواعد العلاجية في زمن كان الاعتقاد السائد فيه أن الأمراض تسببها الأرواح الشريرة والشياطين والنجوم، وكانوا يطلبون لها العلاج بالشعوذة والخرافات، فمنع نبي الإسلام ﷺ كل الممارسات العلاجية المبنية على هذه الاعتقادات الخاطئة فنهى رسول الله ﷺ عن التطير والتمائم والسحر - عليه الصلاة والسلام: (إن الرقى والتمائم والتِّوَلَةَ شرك)، رواه أبو داود، وقال أيضًا: (من أتى كاهنًا أو عرافًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد - صلى الله عليه وسلم)، رواه الترمذي.

إن الذي يقرر هذه الحقائق منذ أربعة عشر قرنًا من غير أن يمتلك الأجهزة المتقدمة في الفحص والعلاج وفي بيئة يغلب عليها السلوك الخاطئ في العلاج لا يمكن إلا أن يكون موصولاً بالوحي الإلهي: قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ سورة النجم (٤،٣).

توصية مهمة:

نوصي وزارات الصحة في العالم العربي وأصحاب القرار فيها أن يسلكوا مسلك الدول المتقدمة في جلب ما هو نافع ومفيد لصحة الناس وأن يؤهلوا الأطباء والعاملين في الحقل الصحي للقيام بهذه الوسائل العلاجية في المستشفيات والمصحات الطبية وتقنين ممارسة الحجامة بالذات لخطورة ممارستها من قبل عوامّ الناس حيث يمكن أن تنتشر بعض الأمراض شديدة الخطورة عن هذا الطريق.

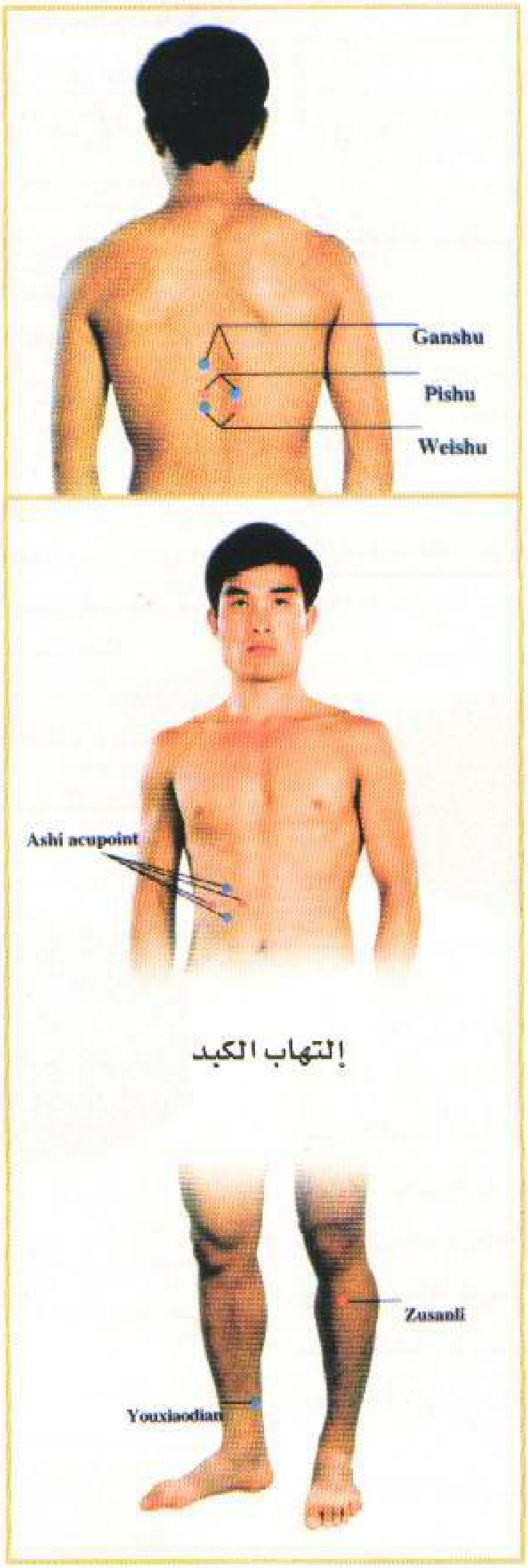

إلتهاب الكبد

زيادة الدهون في الدم

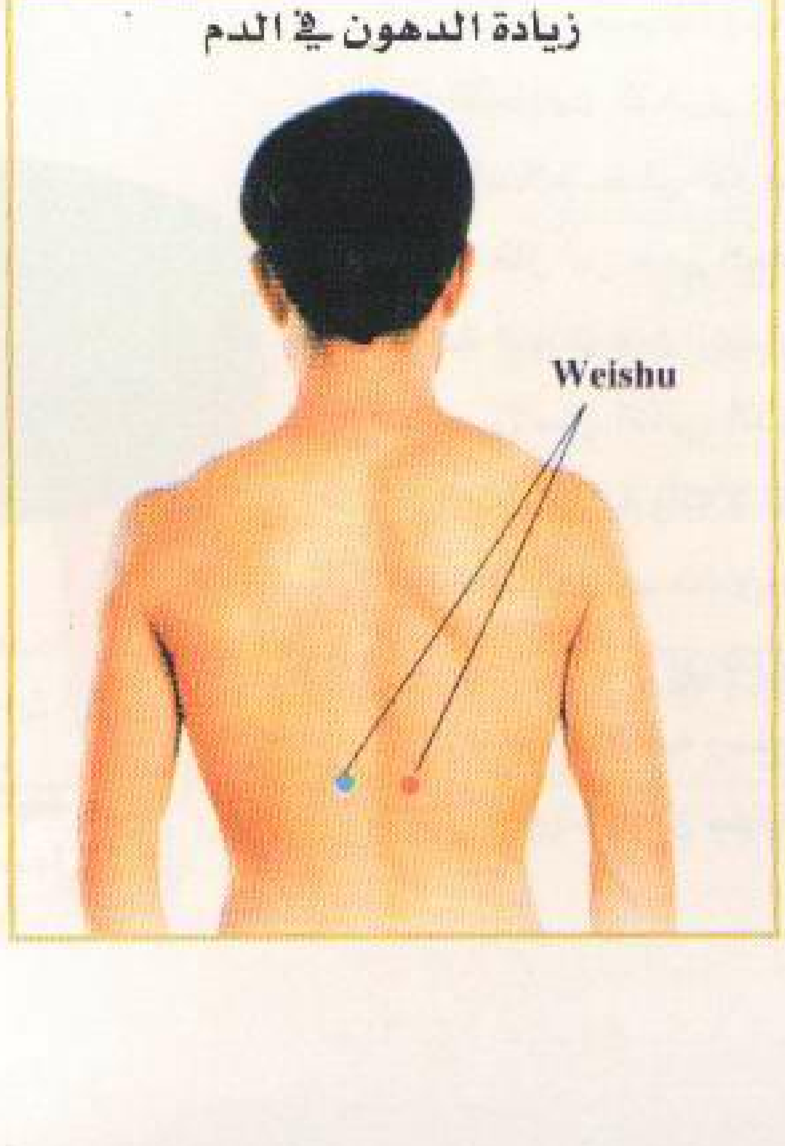

المراجع:

١ - الحافظ أحمد بن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج١٠، كتاب الطب.

٢. محمود ناظم النسيمي، الطب النبوي والعلم الحديث، ج ٢، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ. ١٩٨٤م، المتحدة للتوزيع، دمشق.

٣ . شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي (ابن القيم) الطب النبوي.

٤ . الحافظ شمس الدين الذهبي، الطب النبوي دار البشير - القاهرة.

٥ . غياث حسن الأحمد، الطب النبوي في ضوء العلم الحديث، الطبعة الأولى، دار المعاجم، دمشق.

٦ . غسان نعمان ماهر، الطب البديل الطبعة الثانية - بيروت.

٧ . لسان العرب، لأبي الفضل جمال الدين بن مكرم.

Sisminar Alternative medicine, Hafer Albaten. S.A

- Haci Five Elemerents needle instruction manual. Haci Company Limeted. Chaina.
- Patrick C. & others Alternative medicine. (1991) First ed - Reader's digest - London.

عرض يملا العين..!
عدسات لاصقة نوعان..
وظلال العين من أجمل الألوان..
بـ: ٢٤٩ ريال فقط..!
• زوج عدسات لاصقة مستديمة "I-Lux"
• زوج عدسات لاصقة مؤقتة "I-Lux"
• حافظتان عمليتان للعدسات.
• علبتا محلول للتعقيم والعناية بالعدسات.
• حقيبتان أنيقتان لحفظ المجموعة.
إضافة إلى:
قسيمة مجانية لاختيار ما يناسبك من مجموعة ظلال العين التجميلية الطبيعية
من محلات
ذي بودي شوب
THE BODY SHOP
ColorMaker
Crystal Blue
Jade Green
Cappuccino
Pearl Grey
Violet
I-Lux Innov
هذا العرض من ١/٩/١٤٢٢هـ الى ١٥/١٠/١٤٢٢هـ أو حتى نفاد الكمية ويتم تبديل القسائم من محلات ذي بودي شوب حتى نهاية شوال ١٤٢٢هـ
مؤسسة حسام للنظارات
الإدارة العامة: جدة هاتف ٦٦٥٨٦٦٥ فاكس ٠٢٦٦٠٦٦٧٥
جدة: سوق جدة الدولي هاتف ٠٢٦٦٠٠١٤٨
جدة: مركز الكورنيش التجاري هاتف ٠٢٦٤٤٦٢٣٦
جدة: المستشفى السعودي الألماني هاتف ٠٢٦٨٢٩٠٠٠
جدة: مركز النخيل الطبي هاتف ٠٢٦٦٥٧٢٨٧
المدينة المنورة: سوق المدينة الدولي هاتف ٠٤٨٢٢٨٧٢٦
ينبع الصناعية: مركز النواة التجاري هاتف ٠٣٣٩٦٠٥١٠
رابغ: الشارع العام هاتف ٠٣٤٢٢١٣٨٥
مكة المكرمة: مركز آل المفتي هاتف ٠٢٥٤٢٢٩٤٢
مكة المكرمة: العزيزية هاتف ٢٥٥٧٥٦٣٠
مكة المكرمة: سوق مكة الدولي هاتف ٠٢٥٣٤٠٤٥٣
الرياض: عيون الضبا أسواق الجزيرة هاتف ٠١٤٦٢٥٧٩٣

الصدفة المزعومة.. أين هي؟

د. عدنان فقيه

كثيرًا ما وردت كلمة (صدفة Chance) في الفلسفة الغربية عند الحديث عن أصل نشأة الكون وعن مدى الحاجة لوجود خالق له من الناحية العقلية وذلك بناءً على معطيات العلم الحديث والحقيقة أن هذه الكلمة أُستخدمت استخدامًا غير بريء بالكلية إذ إنها وُظّفت لتقديم بديل عن التفسير (الخلقي) لوجود الكون، ذلك أن هؤلاء المنكرين لوجود الخالق عز وجل يريدون أن يوهموا الجماهير أنهم إذ يصرفونهم عن الاعتقاد بوجود خالق للكون فإنما يحيلونهم إلى بديل (مألوف) لديهم يعرفونه ويستخدمونه في حياتهم اليومية ألا وهو مفهوم (الصدفة) والذي يضطرهم إلى هذا المسلك هو أنه من غير الممكن للفطرة السوية ولا (للحس العام) أن يقبلا بوجود شيء من لا شيء مهما تقعرت ألفاظ المتفلسفين وتعرجت بهم السبل من أجل الوصول إلى مبتغاهم، ففي نهاية المطاف يعود المرء إلى نفسه بعد قراءة طويلة لحجج هؤلاء وسفسطاتهم ليقول: أتريد أن تقنعني أن هذا الكون الهائل المحكم في بنائه قد أنشأه العدم!!؟؟، لن يقبل بهذا التفسير إلا شواذ الشواذ، ولن يقبلوه إلا وهم يكذبون على أنفسهم، ولذلك فهم لا يجرؤون على أن يصرحوا به بل يختبئون وراء ما يسمونه بجدلية (الصدفة) لتكون بديلاً عن جدلية (الخلق) لكن هؤلاء على كثرة كتاباتهم حول هذا الموضوع لا يُعرّفون لنا معنى كلمة (صدفة)، تلك الكلمة التي يكثرون استخدامها والتعلق بها.

ولقد تصفحت عشرات الكتب والمقالات التي تدافع عن نظرية الصدفة هذه وتعمدت أن أبحث فيها عن تعريفٍ لكلمة (صدفة) فلم أعثر على ذلك إلا في أقل القليل منها وكانت تلك التعريفات تظهر على استحياء وبشكل سطحي وغير دقيق، وأزعم أن هذا الأمر مقصود حيث إن الخوض في تعريف كلمة (صدفة) يُعرّي قضية هؤلاء من الهدف الذي من أجله أُقحمت تلك الكلمة وهو كما أشرت سابقًا إحالة القارئ إلى معنى مألوف لديه يستخدمه في حياته العادية ليكون بديلاً عن الحقيقة الفطرية والأكثر ألفة لديه والتي تستشعر الحاجة إلى وجود خالق لهذا الكون.

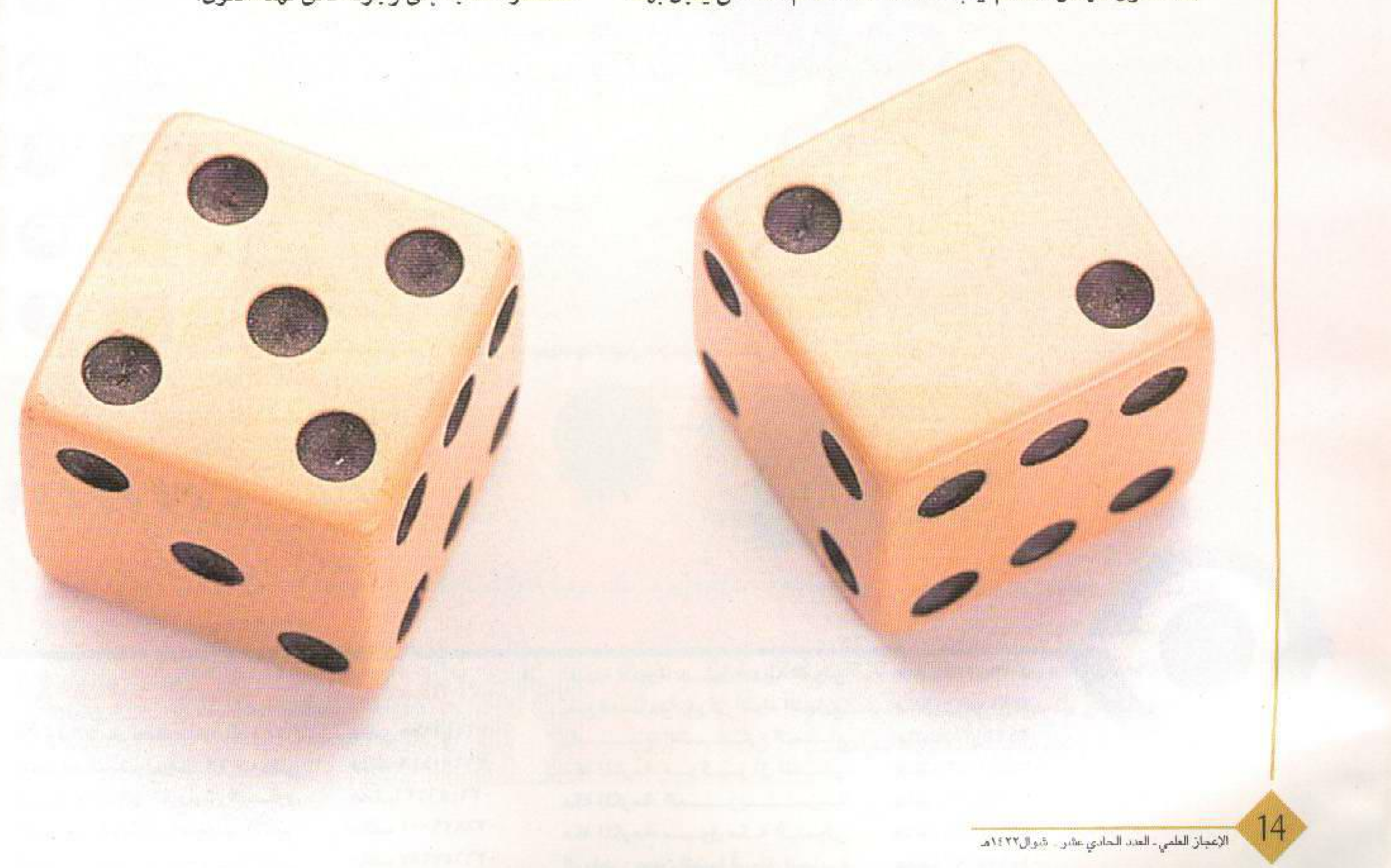

الصدفة في حياتنا اليومية

وما دام الأمر كذلك فلنبحث إذًا عن ذلك المعنى المألوف لكلمة الصدفة في حياتنا اليومية والذي يحاول الملحدون أن يستدعوه من ذاكرتنا للهروب من الاعتراف الصريح بما تنطوي عليه مقولتهم من خلق العدم للوجود، لنرى إذا كان ذلك المعنى المألوف يسمح باستخدامه وتوظيفه بالطريقة التي يريدون ولو تتبعنا استخدام كلمة (صدفة) في حياتنا اليومية لوجدنا أن هذه الكلمة لا تستخدم في حياتنا اليومية إلا للتعبير عن واحد من ثلاثة مفاهيم:

١. للتعبير عن عدم القصد من وراء الفعل مع إمكانية فعل الفعل بقصد، كأن تلتقي بصديق في محل تجاري من غير موعد فتقول لقيته صدفة أي بغير قصد مني أن ألقاه.

٢. للتعبير عن وجود القصد لإحداث الفعل مع عدم توفر القدرة على فعله، كأن يرمي رجل لا يعرف فنون الرماية هدفًا فيصيبه من أول رمية فيقال: إن إصابته للهدف كان من قبيل الصدفة أي ليست عن استحقاق ومهارة لديه.

٣. للتعبير عن عدم وجود رابط بين حدثين متزامنين أو متلاحقين أي انتفاء ما يسمى بروابط السببية بينهما سواء كان هذا الرابط مباشرًا باعتبار أحدهما (سبب) والآخر (نتيجة)، أو غير مباشر باعتبار أن كليهما نتيجة مشتركة لسبب ثالث غير ظاهر، والأمثلة على ذلك كثيرة منها موت إنسان ما وصراخ امرأة تقطن المنزل المجاور له لسبب آخر فنقول: إن تزامن صراخ المرأة مع موت الرجل أو حدوثه بعد الموت مباشرة كان من قبيل الصدفة وليس بسبب حدث الموت.

وقبل أن نشرع في النظر في علاقة استخدامنا اليومي لكلمة (صدفة) مع استخدامها في الحديث عن نشأة الكون لا بد أن نشير إلى أن هناك استخدامًا يوميًا لكلمة (صدفة) يندرج في حقيقته تحت النوع الثاني المشار إليه آنفًا، وإن كان يبدو للوهلة الأولى أنه يمثل صنفًا رابعًا مستقلا عن الاستخدامات التي حصرناها، ولنأخذ المثال التالي لتوضيح هذا الأمر:

بينما كان طفل صغير يعبث بعود خشبي في الرمل الموجود على شاطئ البحر، إذ به يعثر على خاتم مدفون في الرمل، فيسارع به إلى أمه التي يتبين لها بعد فحصه أنه ذات الخاتم الذي فقدته في رحلة سابقة لأسرتها إلى شاطئ البحر، واذ بها تتذكر كيف أمضت وقتًا طويلاً في محاولات العثور عليه من غير جدوى، لو أننا تأملنا في هذا المشهد فإننا سوف نتصور إمكانية أن نستخدم كلمة صدفة قائلين: إن الطفل وجد الخاتم عن طريق (الصدفة)، وهذه الحالة من استخدام كلمة صدفة لا تندرج - في الظاهر - مع أي من الحالات السابقة؛ فالطفل لم يكن يقصد العثور على الخاتم، بل ربما لم يكن يعلم بفقده في المقام الأول، كما أنه لم يكن يملك القدرة - لو علم بفقده - على العثور عليه، إذ إنه لم يكن يعرف مكانه، فهل يمكن أن نعد هذه حالة رابعة لاستخدام كلمة (صدفة) في حياتنا اليومية بحيث يعبر هذا الاستخدام عن عدم وجود القصد لفعل الحدث وعدم وجود القدرة على فعله؟ قبل أن نسارع لنقول بصحة هذا التصور يجب أن نتنبه إلى أننا لم نكن لنستخدم كلمة (صدفة) لو أن هذا الطفل وجد غطاءً لزجاجة أحد المشروبات الغازية مدفونًا في رمل الشاطئ بدلاً من الخاتم المفقود! مما يعني أن هناك خصوصية للعثور على الخاتم لا يوجد نظير لها في حالة غطاء المشروب الغازي؛ جعلت استخدام كلمة الصدفة سائغًا هنا وغير سائغ هناك، فما هي هذه الخصوصية؟ لا شك أن هذه الخصوصية تكمن في كون الخاتم مهمًّا بالنسبة لأم الطفل على خلاف الغطاء، وهذه الأهمية يمكن ترجمتها في وجود (قصد) من ناحية الأم إلى الحصول على هذا الخاتم أو العثور عليه، الأمر الذي يعيدنا إلى النوع الثاني من استخدامات كلمة صدفة في حياتنا اليومية، والذي بيّنا أنه يدل على وجود القصد لإحداث الفعل مع عدم وجود القدرة على إحداثه، والفرق هنا أن (القصد) لم يكن في ذهن الفاعل (الطفل) إنما كان في ذهن شخص آخر (الأم) ولذلك فإن الخاتم لو كان من النوع الرخيص ووجده رجل لا يعرف قيمته لدى أصحابه لم يكن ليستخدم كلمة صدفة لوصف حدث عثوره عليه إذ سيكون لا فرق كبيرًا عنده بين العثور على الخاتم وبين العثور على غطاء زجاجة المشروب الغازي، وكذلك الشأن لو أن رجلاً وجد قطعة ذهبية في شاطئ البحر لساغ له أن يقول: إنه وجدها عن طريق الصدفة ويكون هذا الاستخدام أيضًا من قبيل النوع الثاني من استخدامات كلمة صدفة مع ملاحظة أن (القصد) هنا لا يعود إلى رغبة العثور على تلك القطعة الذهبية بالتحديد في ذلك المكان والزمان ولكن يعود إلى كون الحصول على أي شيء من الذهب أمرًا (مقصودًا) - في العادة - بغض النظر عن الزمان والمكان، وبعبارة أخرى فكأننا نقول: إن (الحصول على الذهب) رغبة موجودة لدى كل إنسان وهي بذلك تعبر عن (قصد) كامن يتجلى في صورة الانفعال الذي يحدث له عند تحقق هذه الرغبة.

الصدفة بين الاستعمال اليومي ومسألة نشأة الكون

يمكننا أن نرى بوضوح - من خلال الاستخدامات اليومية لكلمة (صدفة)- أنه لا علاقة لمفهوم الصدفة الذي نستخدمه مع ما يحاول هؤلاء الملحدون أن يوهمونا به، ففي الحالتين الأوليين كان استخدام كلمة (صدفة) يقتصر على التعبير عن عدم القصد أو عدم القدرة لكنه لا يتحدث أبدًا عن عدم وجود فاعل أصلاً ولا يمت إلى هذه الفرضية بأية صلة! فكونك التقيت بصديقك في المحل التجاري صدفة لا يعني أن هذا اللقاء تم بدون أن يكون هناك فاعل له، والفاعل هنا - كما هو واضح - هو أنت وصديقك فكلاكما قام بعمل من أجل إحداث هذا اللقاء كالمشي من المنزل إلى المحل التجاري مثلاً، وغاية الأمر أنكما لم تقصدا إحداث اللقاء، وكذلك الشأن في الاستخدام

الثاني لكلمة الصدفة، فكون الرمية التي رماها المبتدئ في الرماية أصابت الهدف (صدفة) لا يعني أن ذلك حدث دون الحاجة إلى فاعل وهو الرامي في هذه الحالة، فإطلاق كلمة صدفة على هاتين الحالتين لا يعني مطلقاً عدم الحاجة إلى وجود فاعل للأحداث، وإنما يعني أحد أمرين: إما عدم القصد لإحداث الفعل وإما إحداث الفعل مع وجود القصد ولكن دون وجود القدرة على إحداثه، وفي كلتا الحالتين فإن الفاعل موجود وهو ما يريد المشككون نفيه، فأي حجة لهم في استخدام كلمة صدفة سوى تضليل الناس وإيهامهم بوجود بديل معقول لمسألة الخلق؟ وعلى ذلك فإن استخدامهم لكلمة (صدفة) بأحد هذين المعنيين في إطار مسألة نشأة الكون هو في الحقيقة مكافئ لأن يقولوا: إن للكون خالقاً ولكنه خلقه من غير قصد منه، وكان بالرغم من ذلك بهذا الإتقان والعظمة، أو أن يقولوا: إنه قُصد خلقه بهذا الإتقان والعظمة لكن خالقه لم يكن يملك القدرة على ذلك، وإنما حدث له ذلك عن طريق الصدفة، فهل يقول بهذا الكلام عاقل؟ تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرا وبالرغم من ظهور فساد هاتين المقولتين، إلا أن الأمر الأهم هو كون المنكرين إنما يريدون أصلاً من وراء فكرة الصدفة نفي الحاجة إلى وجود الخالق، الأمر الذي لا يتيحه لهم استخدام كلمة (الصدفة) بأحد هذين المعنيين، أما الاستخدام الثالث لكلمة صدفة فيقتضي أن يكون هناك حدثان كما ذكرنا متزامنين أو متلاحقين والبحث حينئذ يكون في علاقة أحدهما بالآخر هل هي صدفية أم سببية وهم - أي المتعلقون بنظرية الصدفة - إنما يتحدثون عن حدث واحد وهو نشأة هذا الكون، فما هو الحدث الآخر الذي يستخدمون الصدفة للتعبير عن العلاقة بينه وبين نشأة الكون؟ ليس هناك جواب إلا أن يقال: إنه وجود الحق - سبحانه وتعالى - مع اعتراضنا على تسمية ذلك حدثًا - وحينئذ لا حاجة للمناقشة معهم إذ أثبتوا وجود الخالق وهو الأمر الذي يريدون نفي الحاجة إليه، أو أن يقولوا بوجود حدث آخر قبله وهي فرضية لا دليل عليها وتستلزم التسلسل أو الدور(١) وكلاهما باطل وخلاصة القول: إن استخدام كلمة (صدفة) في حياتنا اليومية لا يطلق على إيجاد شيء من لا شيء، وبذلك لا يصح استخدامها كبديل لمقولة الخلق والتي تطلق على هذا المعنى ولو أن إنساناً أبصر وهو يسير في الطريق بيتًا يظهر فجأة في الخلاء وأراد أن يصف هذا الحدث المذهل لربما قال: إن ظهور البيت كان من قبيل المعجزة أو الخارقة لكنه قطعًا لن يقول: إن ظهور البيت كان من قبيل الصدفة، فمن أين تسلل هذا الاستخدام لكلمة صدفة ليحل محل كلمة الخلق؟!

قراءة أخرى لنظرية الصدفة؟

وقد يقول قائل: إنهم إنما يريدون بمقولتهم إن الكون نشأ صدفة - كونه تطور من حالة أولية تسودها الفوضى إلى حالة منظمة كما نراها اليوم من دون الحاجة إلى منظم لهذا التطور ومهيمن عليه، ولا يريدون بذلك خروجه من العدم إلى الوجود، وجوابنا عن ذلك من عدة وجوه أولها أنهم قلّما يشيرون إلى هذا التفريق متعمّدين دمج المسألتين بدليل اعتبار (نظرية الصدفة) بديلاً عن (نظرية الخلق) لديهم و(الخلق) لا ينصرف أصلاً إلى التنظيم من الفوضى فذلك (ترتيب) أو (صنع)، وإنما المعنى الأقرب تعلقًا في هذا السياق لكلمة (خلق) هو أن يُقصد بها إخراج الوجود من العدم وثانيها أنهم إن أرادوا صدفية التنظيم لا الخلق نقول لهم: إن هذا صرف للمسألة عن أصلها؛ فإن إخراج الوجود من العدم أعظم من إخراج وجود منظم من وجود غير منظم، فلماذا تركتكم أصل المسألة وأعظم جانبيها وتعلقتم بالآخر؟، وقد أشار القرآن الكريم إلى مثل هذه الحقيقة حيث قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾، ذلك أن الإنسان خُلق من وجود سابق له وهو الحمأ المسنون كما في حالة آدم - عليه السلام - وخُلق من غيره من البشر كما هو في سائر الناس، أما السموات والأرض فقد خلقهما الله - تعالى - من العدم ومن أجل ذلك كان خلقهما أكبر من خلق الناس والله - تعالى - أعلم وثالث هذه الوجوه هو أنهم لكي يثبتوا أن الكون إنما (تطور) بمحض الصدفة، أخذوا يبحثون عن قوانين وسنن تساند قولهم وهو اتجاه في البحث يمضي على العكس من الأمر المراد إثباته، فما دامت العملية كلها عشوائية تعتمد على الصدف فلماذا نفترض هيمنة القوانين إذًا، أليس الأوْلَى أن نقول: إن قضية الصدفة لا يمكن إثباتها لأنها عشوائية؟! وإذا وافقنا هؤلاء - جدلاً - وقلنا: إن الصدفة تولد نسقًا ونظامًا فلا يمكننا أن نوافقهم على استخدام هذا النسق والنظام لإثبات الصدفة، وذلك لأن هذا النسق وذلك النظام إنما نشأ عن طريق الصدفة - على حد زعمهم - وليس اعتمادًا على بناء منطقي أو رابط سببي يمكن تتبعه للرجوع إلى أصل القضية والحكم عليها نعم قد نقبل ممن يعتقد أن الكون كله يسير وفقًا لنظم وقوانين أن يبحث عن النظم والقوانين، أما من يبني فلسفته في فهم سر وجود الكون على أساس الصدفة والعشوائية ثم يستدل بالأنظمة والقوانين فلا يمكن تفسير تصرفه إلا على أنه مسلك انتقائي نفعي لا يقوده إلا الهوى ولا يمت إلى السعي للوصول إلى الحقيقة بصلة.

التنظيم الذاتي، ومحاولة أخرى فاشلة!

ومن الحجج التي يستخدمونها للتدليل على أن الصدفة يمكنها أن تنتج نسقًا منظمًا مقولة التنظيم الذاتي (Self-organization) ومقولة التعقيد (Complexity) التي تنسب إلى نظرية الفوضى، والتي استخدمت فيها عمليات المحاكاة الحاسوبية لمحاولة إثبات أن هناك نظمًا يمكن أن تطور نفسها بنفسها ابتداءً من قواعد في غاية البساطة وبدون تدخل خارجي(٢)، ولو سلمنا جدلاً بمشروعية هذه المحاولات الحاسوبية يبقى السؤال الملحّ عن تلك القواعد البسيطة، مَن الذي وضعها؟ ثم مَن الذي جعل احترامها (واجبًا) داخل تلك النظم؟ لكننا في الحقيقة لا نسلِّم بمشروعية هذه المحاولات الحاسوبية إذ إنها تبني برهانها لإثبات ما تريد على (مُسلَّمة) لو صدّقنا بها لما احتجنا إلى ذلك البرهان أصلاً ذلك أن هذه (المسلَّمة) تتضمن النتيجة التي يريد البرهان إثباتها؛ فهي تفترض أن خلوّ هذه الأنظمة من الإرادة الإنسانية يقتضي خلوها من الإرادة مطلقًا،

ونحن لا نسلم بخلوها من الإرادة الإنسانية، فضلاً عن أن نسلم بخلوها من الإرادة مطلقًا، فالمؤمن يعتقد أن له مشيئة خاصة به، وأن المشيئة الإلهية حاضرة دائمًا ومهيمنة على مشيئته ومشيئة كل مخلوق كما قال تعالى: ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾، وهو يعتقد أن هذا مما يستلزمه تصوره لوجود إله لهذا الكون، كما سوف نفصل في ذلك لاحقًا. فهذه التجارب الحاسوبية تعتمد على ما يسمى بالأرقام العشوائية، وبعبارة أدق الأرقام العشوائية الكاذبة (pseudorandom numbers)، والتي تنتج عن معادلات يصممها الإنسان لتولد هذه الأرقام، فهو (يحاول) أن يخلي هذا الأرقام من أن تكون (مقصودة) وذلك قصارى ما يمكن عمله لتُعتبر هذه الأرقام عشوائية، وهذا بحد ذاته (قصد) - كما هو ظاهر - والذي يمثل هذا (القصد) هنا هو المعادلة المولدة للأرقام العشوائية، فلا انفكاك إذًا من القصد في توليد هذه الأرقام، الأمر الذي ينفي عنها العشوائية أو بعبارة أخرى يجعلها (كاذبة العشوائية) غير أنه قد شاع مؤخرًا استخدام بعض الأرقام (العشوائية) المولدة من أنظمة طبيعية مثل الجسيمات الكمومية، لكننا لا نقر بعشوائية هذه أيضًا، إذ من أين لنا أنها عشوائية؟، إن ذلك ليس سوى افتراض محض يقوم على تصور أن عدم قدرتنا على التنبؤ بسلوك هذه الجسيمات يعني عشوائيتها، كما أن مفهوم العشوائية نفسه يفترض غياب القصد كما أسلفنا، الأمر الذي يعني - في التصور الإسلامي - خلو الكون من الإله، فلو صدقنا بهذه الفرضية لما احتجنا إلى نتائج هذه التجارب الحاسوبية أصلاً، أمّا ونحن لا نُسلّم بها فلا قيمة إذًا لهذه النتائج المبنية عليها عندنا.

المعنى الاصطلاحي للصدفة

وبالطبع فيمكن لقائل أن يقول: إن القوم لا يقصدون المعنى اليومي المستخدم لكلمة (صدفة) وإنما يقصدون المعنى الاصطلاحي لها، وجوابنا عن ذلك أنه للأسف لا يوجد معنى اصطلاحي متفق عليه لكلمة (صدفة)، حتى نتمكن من مناقشتهم على أساسه، وقد سرد صاحب (موسوعة الفلسفة والفلاسفة) عددًا من التعريفات التي تنسب لكبار الفلاسفة، نَمُرُّ عليها سريعًا مبيّنين أنه لا يمكن استخدام أي واحد منها في مسألة نشأة الكون(٣)، فـ(سيمون لابلاس) و(برتنارد رسل) يعرفان الحدث الصدفي على أنه (الحدث مجهول العلة) فإذا كان هذا المعنى الاصطلاحي هو المقصود فيكون استخدام كلمة صدفة هنا بمثابة قولهم: إن علة الكون (أو علة إنشائه من العدم) مجهولة وهذه العبارة - كما هو ظاهر - إنما تصف حال قائلها ولا تصف حقيقة موضوعية تتعلق بوجود الكون، إذ غاية ما تصف غياب العلم بالعلة وليس غياب العلة ذاتها، أما ما ذهب إليه (أنطوان كورنو) متابعًا (أرسطو) و(مل) من أن الصدفة هي تزامن سلسلتين علّيّتين مستقلتين، فقد أجبنا عنه عند الحديث عن الحالة الثالثة التي نستخدم فيها كلمة صدفة في حياتنا اليومية، يبقى رأي (بيقور) و(بيرس) و(وليام جيمس) والذي يرى بأن هناك حوادث لا تعليل لها وتسمى لذلك حوادث صدفية محضة، الأمر الذي جاءت الفيزياء الكمومية لتشجعه في نظر البعض بما ينطوي عليه مبدأ عدم التحديد(٤) من وضع سقف لإمكانية المعرفة بشكل عام في العالم دون الذري، وفيما يخص هذا الاستخدام لكلمة (صدفة)، فإن الزعم بأن هناك حوادث لا تعليل لها لا يستند على برهان ولا يمكننا التحقق من صحته مطلقًا، وقصارى ما يمكن أن نقوله: إنه لا (يُعرف) لهذا الحدث أو ذاك علة، لكن نفي وجود العلة مطلقًا قضية معرضة للنقض في أي وقت بإمكانية معرفة علة ما وراء الحدث مهما كانت تلك العلة

غريبة أو غير مدركة، كما أن العلل عندهم تقتصر على ما يمكن للتجربة أن ترصده، وذلك افتراض نعترض عليه إذ يتضمن أنه لا وجود لغير ما تدركه الحواس، وهو أصل المسألة التي نتحدث عنها، فلو وافقنا على هذا الافتراض لما كانت بيننا وبينهم قضية أصلاً، إضافة إلى ذلك فإن الحديث عن العالم دون الذري لا يخلو من أمرين يجعلان إمكانية إثبات عدم وجود علة وراء الحدث أمرًا مستحيلاً، أولهما كون المفاهيم المستخدمة في هذا العالم الدقيق لا تعكس بالضرورة وجودًا حقيقيًّا موضوعيًّا، ومن ثم فإن أية محاولة لإثبات عدم العلّية - إن نجحت في ذلك - فإنها مرتبطة بالمفاهيم المستعملة في فهم هذه الظواهر دون الذرية، والتي هي - كما أسلفنا - مجرد مفاهيم أداتية لا مطابقة ضرورية بينها وبين الواقع الذي تحاول أن تصفه، وثانيهما هو حقيقة أن التعامل مع العالم دون الذري يتأثر - كما هو معلوم - بالمراقب نظرًا لحساسية هذا العالم لأدوات القياس، وهذا يعني انتفاء الموضوعية (التامة على الأقل) في النتائج التي يحصل عليها المراقب وبالتالي فأقصى ما يمكن قوله هو عدم إمكان معرفة العلة (بالنسبة) للمراقب لا عدم إمكان معرفتها مطلقًا، فضلاً عن القول بعدم وجودها، وقد أشار إلى مثل ذلك العالم الإنجليزي الشهير (ستيفن هوكنج) حيث قال في معرض حديثه عن الحدود التي يضربها مبدأ عدم التحديد على المعرفة المتزامنة لمكان الجسيم وطاقته - قال: إن ذلك لا يمنعنا أن نتصور أن هذه المعرفة ممكنة بالنسبة لمراقب فوق طبيعي خارق يمكنه أن يلاحظ الحالة الراهنة للكون دون أن يؤثر عليه(٥)، ومع عدم اتفاقنا مع هذا (الشرط) للمعرفة والذي يمليه على صاحبه التصور العلمي (القاصر) لطبيعة العلاقة بين الخالق والمخلوق، إلا أن الشاهد هنا هو أنه حتى في هذا التصور العلمي المحدود، فإن المبادئ والقوانين الفيزيائية ليس لها تلك المصداقية المطلقة التي يحاول أن يروج لها البعض.

مبدأ عدم التحديد هل يفسر إيجاد شيء من لاشيء؟

بقي أن نعرّج على ما يقال أحيانا من أن الفيزياء الكمومية، وبالذات مبدأ عدم التحديد يسمح بظهور جسيمات من العدم لفترات زمنية قياسية في الصغر ثم اختفائها ثانية، الأمر الذي طبّل له القائلون بنظرية الصدفة واعتبروا اكتشافه (إنجازًا) يحسب لصالح نظريتهم! وقد حاول بعض

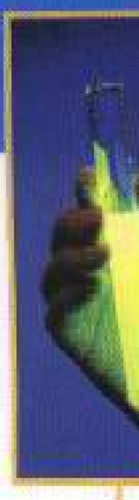

العلماء الأفاضل التشكيك في صدقية هذا الأمر باعتبار أن هذه الجسيمات لا تخرج من العدم وإنما تظهر ضمن الإطار الزماني - المكاني (الزمكان) المحيط بها والزمكان ليس عدمًا(٦)، ومع وجاهة هذا الاعتراض إلا أننا نرى أن هذه الجسيمات إن كانت تظهر من العدم بالفعل فلن تكون إلا دليلاً جديدًا على صحة عقيدة الخلق ومثالاً مُعايَنًا على عظمة الخالق يزيد من حاجة المنكرين إلى التبرير والتفسير، فلم يعد الأمر مقتصرًا على حدث واحد (هو خروج هذا الكون من العدم إلى الوجود) وقع منذ بلايين السنين يمكن أن نغض الطرف عنه لنتحدث بدلاً عن ذلك عن تفاصيل تطور المجرّات وخلق الإنسان ومدى إمكانية أن يحدث ذلك صدفة، بل أصبح الأمر يتطلب تفسيرًا مُلحًّا لظهور هذه البلايين من الجسيمات التي تنشأ في كل لحظة، مَن الذي أخرجها من العدم إلى الوجود ثم من الوجود إلى العدم مرة أخرى؟! ولا تلتفت إلى التفسير الواهي الذي يردده هؤلاء من أن (مبدأ عدم التحديد يسمح بذلك)، فالمبادئ والقوانين الفيزيائية تصف فقط ما يحدث ولكن لا تفسره ولا تبرره وهو أمر معروف ومقرر عند فلاسفة العلم في العصر الحديث كافة، بل وعند العقلاء الذين يفهمون أن القانون الفيزيائي إنما هو عبارة عن وصف للعلاقة بين الأشياء ولا شيء أكثر من ذلك، ولكي ندرك مدى تهافت هذا التعليل لنتصور أن رجلاً عاد إلى منزله بعد فراغه من العمل واتجه مباشرة إلى المطبخ ليشرب كوبًا من الماء، فإذا به يفاجأ بعدم وجود الثلاجة في مكانها المعتاد، فاتجه خارجًا ليجدها قد وضعت في ركن بهو المنزل، فلما سأل زوجته من الذي أخرج الثلاجة من المطبخ إلى البهو أجابته ببرود وثقة (إن باب المطبخ يسمح بخروج الثلاجة منه)! فهل يملك مثل هذا الرجل إلا أن يعتقد أن زوجته تتغابى أو تسخر منه إذ تجيبه بهذا الجواب، أو أنها قد أصيبت بلوثة في عقلها، هذا مع استبعاده أن تكون قد تعاطت شيئًا أثّر على عقلها أثناء فترة غيابه خارج المنزل! ومهما بدا هذا المشهد مضحكًا، إلا أن موقف هؤلاء المحتجين بالقوانين والمبادئ الفيزيائية على النحو الذي أوردناه هو أعجب وأغرب، فالباب الذي يصل المطبخ بالبهو موجود وقائم ومدرك بالحواس، بينما مبدأ عدم التحديد هو مفهوم أو فكرة تصورها الفيزيائيون لتحل لهم إشكالات تجريبية في العالم دون الذري، فقولهم: إن مبدأ عدم التحديد يسمح بظهور هذه الجسيمات من العدم لا يعدو أن يكون بمثابة طمأنة لهم بعدم تعارض هذه الظاهرة مع المبدأ الذي اقترحوه لحل الظواهر التجريبية الأخرى التي وضعوا على أساسها هذا المبدأ، ولو تعارضت لوجب إعادة النظر في وجود هذا المبدأ أصلاً إذ إن مصداقيته ناشئة من توافقه مع الظواهر التجريبية، وهذا بخلاف باب المطبخ في مثال الرجل الظامئ فهو موجود وجودًا مستقلا عن الثلاجة لا يعتمد تصديقنا بوجوده على كونه يسمح بمرور الثلاجة منه أو لا، فهل بعد تلبيسهم هذا من تلبيس؟!

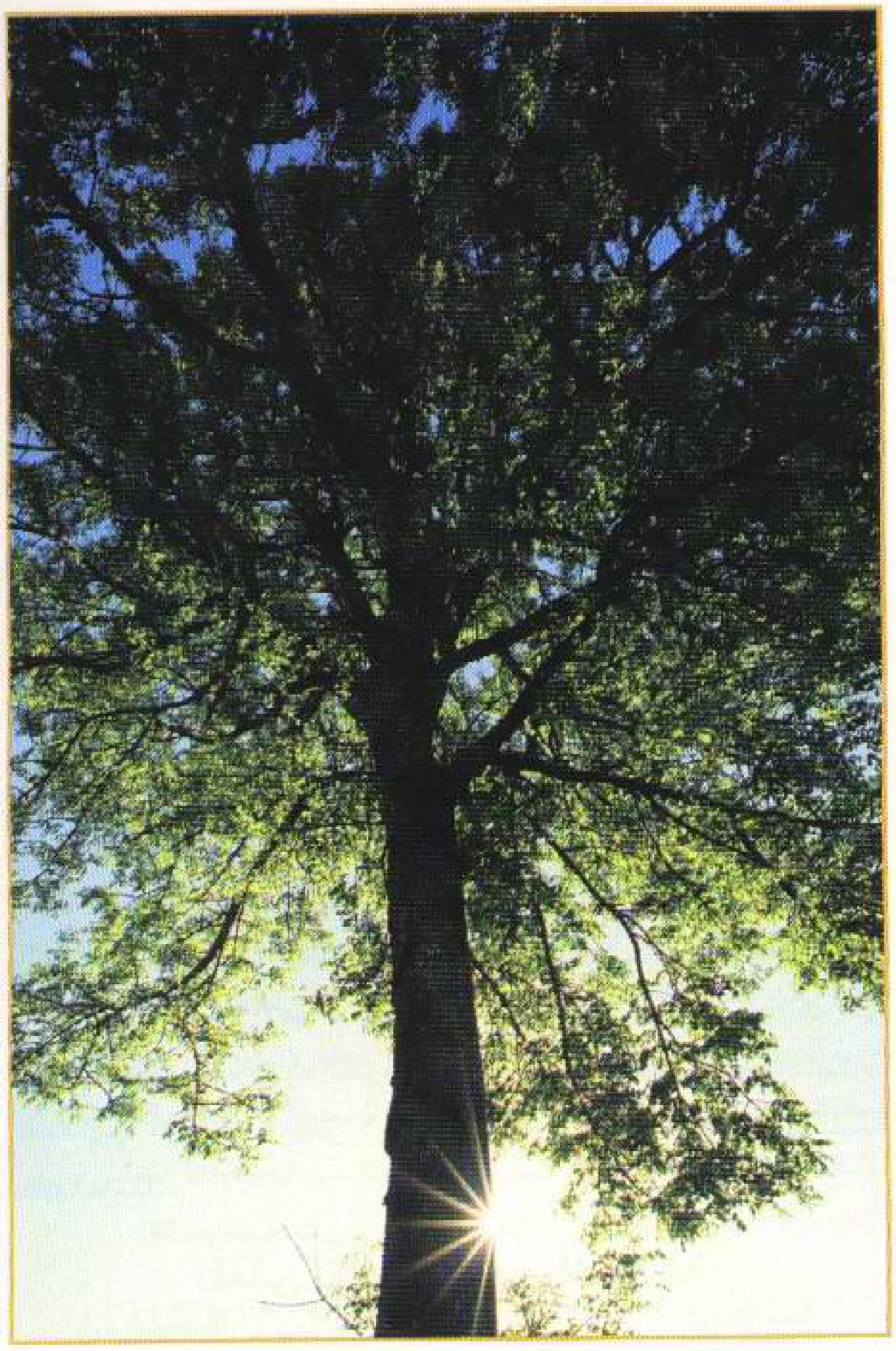

عملية الخلق بين التوراة والقرآن

والذي يظهر أن القوم قد أوتوا من فهمهم الخاطئ لعملية (الخلق) في معناها الديني عندهم إذ إنهم يصطحبون دائمًا الرؤية التوراتية (المحرفة) التي تقول: إن الله خلق الكون في ستة أيام ثم استراح في اليوم السابع، تاركًا الكون تحكمه القوانين التي فيه دون تدخل منه، فالذي يدير الكون وينظمه هو هذه القوانين والمخلوقات التي تسكنه فهي - في نظرهم - يؤثر بعضها على بعض تأثيرًا مستقلا تبعًا لاعتقادهم بوجودها المستقل، وهذه الرؤية تشوبها ظلال من الشرك إذ إنها تنسب إلى المخلوقات قدرة مستقلة فيكون الإيمان بوجود خالق للكون على هذا النحو إيمانًا مشوبًا بالشرك ينطبق عليه قول الله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾، وذلك على خلاف الرؤية الإسلامية للكون التي تكون لله فيها القيومية المتصلة على هذا الوجود فليس الوجود مستقلا بذاته وقوانينه بل هو محتاج في كل لحظة إلى الحق - سبحانه - ليمنعه من الزوال والفناء اللذين تستوجبهما حقيقة كون هذا الوجود مخلوقًا لا خالقًا ومربوبًا لا ربًّا وبهذا المدد الإلهي المستمر والمتصل يقوم الكون ويبقى، وفي ذلك يقول الحق - سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ﴾، ويقول أيضًا: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلا بِإِذْنِهِ﴾، وفي الآية الأخرى: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾، وفي ظل هذه الرؤية للكون يكون ظهور تلك الجسيمات الكمومية من العدم ليس بأعجب ولا أغرب من استمرار وجود الأرض التي نسير عليها والسماء التي نستظل بها، إذ إنهما آيلان للزوال في كل لحظة من لحظات وجودهما، وبقاؤهما مرهون بإذن الله وإمساكه لهما، وبذلك فهما ليسا أقل افتقارًا لقدرته - سبحانه - من

افتقارهما لها حينما كانا عدمًا فأخرجهما إلى الوجود، أو من افتقار تلك الجسيمات الكمومية لقدرته ـ سبحانه ـ لكي يخرجها من العدم إلى الوجود، ويمكننا من خلال هذه الرؤية أن نعيد النظر في كثير من المفاهيم الفيزيائية والقوانين الطبيعية بما في ذلك المشكلات التي تطرحها الفيزياء الكمومية، لنرى أن كثيرًا من الغموض والحيرة التي تكتنفها يمكن تجاوزه إذا ما استندنا على التصور الإسلامي للوجود، الأمر الذي لا نستطيع تفصيله في هذه المقالة التي لم يقصد منها أصلاً الخوض في هذا المجال.

وخلاصة القول:

إن إقحام كلمة صدفة في مسالة نشأة الكون ليس له مسوغ إلا إيهام الجماهير أن هناك بديلاً مألوفًا لمسألة الخلق، ذلك أن الكثير من هؤلاء الجماهير لا يدرسون هذه النظريات الملفّقة بتمحيص وتدقيق ليتأكدوا من صدقها، بل يكفيهم من الماء السراب ـ كما قال الشاعر ـ ونظرًا للانتشار الواسع لهذا التوظيف لكلمة (صدفة) لا ينبغي أن نستغرب من تُعرِّف المصادفة اصطلاحًا على أنها: (خلو النظام الكوني من الإله)!(٧).

إن هؤلاء الذين يتلاعبون بالألفاظ ليضللوا بها الجماهير لا ينبغي أن يستدرجونا إلى الخوض معهم في قضايا وهمية أو هامشية، ولا ينبغي لنا أن نسمح لهم بالتنصُّل من أصول المسائل إلى فروعها لتتحول النقاشات إلى جدل عقيم لا يسمن ولا يغني من جوع، ولنا في سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ أسوة حسنة وهو الذي قال الله تعالى عنه: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾، لنا فيه أسوة حسنة في جداله مع الملك الكافر: ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾، فلم يلتفت سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ إلى محاولة استدراج الملك له بالخوض في تفاصيل الحياة والممات وفي ماهية الموت والحياة التي قصدها ـ عليه السلام ـ عندما تحدث عنهما، ولكنه وضعه مباشرة أمام القضية الأساسية مرة أخرى بطريقة لا يمكنه معها المراوغة والتخلص ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

فلا ينبغي لنا إذًا حينما نحاول الرد على القائلين بنظرية الصدفة في مسألة نشأة الكون أن نُستدرَج من قِبَلِهم لنجادلهم بحساب الاحتمال المتعلق بنشوء المجرّات والأرض والإنسان عن طريق الصدفة وإثبات أن هذا الاحتمال هو مقدار لا متناهٍ في الصغر، بل هو الصفر من الناحية العملية، ذلك أننا إذ نفعل ذلك نقر لهم باستخدام هذا المفهوم (المألوف) لدينا ـ وهو الصدفة ـ في مكان غير مكانه ليكون بديلاً عن المفهوم المألوف (الوحيد) الذي يمكن أن تسكن النفس إليه في قضية نشأة الكون ألا وهو وجود خالق له، كما أننا إذا سايرناهم في مسالة الصدفة هذه سوف نضطر إلى الدخول في مسألة تعريف معنى (الاحتمال) وهي مسألة شائكة في حد ذاتها، ثم في شرح كيفية حساب هذا (الاحتمال)، الأمر الذي لا يفهمه كثير من الناس والذي يغنينا عنه توضيحنا أن محصلة قول هؤلاء أنهم يزعمون أن العدم قد أنشأ الوجود، لنقُل للناس محصلة قولهم هذه ثم لنترك الأمر بعد ذلك عند هذا الحد لنرى كم منهم يقبل بهذا التفسير.

وقد ضرب لنا القرآن الكريم مثلاً رائعًا في هذا الباب عندما عرض قضية خلق الإنسان عرضًا محكمًا موجزًا لا يدع مجالاً للشك ولا للمراوغة فقال تعالى:

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لا يُوقِنُونَ﴾

فإما أن يكون العدم قد أنشأهم أو هم أنشأوا أنفسهم وكلا الزعمين أمر يَمجُّه العقل السويّ، فيبقى لهم أن يقولوا إنهم نشأوا من الأرض من دون خالق (كما يزعم الدارونيون)، فيتجه السؤال حينئذٍ عن الذي خلق الأرض والسماوات، من هو؟ أيزعمون ذلك لأنفسهم؟ ﴿بَل لا يُوقِنُونَ﴾.

الهوامش والمراجع:

(١) التسلسل: هو القول بوجود سلسلة لا نهائية من الأحداث يعتمد كل حدث فيها على سابقه، وهو أمر ـ كما يدرك العقلاء ـ لا يبرر وجود هذه الأحداث ما لم ينته إلى علة أولى واجبة الوجود لا تعتمد في وجودها على غيرها، أما الدور: فهو توقف وجود الشيء على غيره وتوقف وجود هذا الغير على الشيء نفسه، كأن يقال: إن الذي يبرر وجود الحدث (أ) هو الحدث (ب) فإذا سألنا عن الذي يبرر وجود الحدث (ب) يقال لنا: إنه الحدث (أ).

(٢) ينظر في ذلك المحاولات المختلفة التي وردت في كتاب: Resnick, M., "Turtles, Termites, and Traffic Jams",2000, MIT Press.

(٣) عبد المنعم حنفي، (موسوعة الفلسفة والفلاسفة)، ١٩٩٩م، مكتبة مدبولي، القاهرة.

(٤) يقضي مبدأ عدم التحديد بأن هناك سقفًا أعلى للدقة في قياس طاقة الجسيم ومكانه في نفس الوقت فكلما زادت دقة قياسنا لطاقته قلّت دقة قياسنا لمكانه والعكس صحيح.

(٥) ستيفن هوكنغ، (موجز في تاريخ الزمان)، ترجمة عبدالله حيدر، ١٩٩٠م، أكاديميا، بيروت.

(٦) انظر كتاب (الفيزياء ووجود الخالق) للدكتور جعفر شيخ إدريس الصادر عام ١٩٩٧م عن معهد العلوم الإسلامية والعربية في أمريكا، حيث استشهد الباحث باعتراض الدكتور محجوب عبيد طه على مسألة ظهور الجسيمات تحت النووية من العدم (صفحة ٩١).

(٧) سارة بنت عبدالمحسن بن جلوي آل سعود، (قضية العناية والمصادفة في الفكر الغربي المعاصر: دراسة نقدية في ضوء الإسلام)، ١٤١٥هـ، مكتبة العبيكان الرياض.

أسـماك ترصـد الـزلازل؟!

جمال بن فضل محمد الحوشبي j_alhaushaby@hotmail.com

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ الحج: ١٨، **إنه ذلك المشهد المهيب الذي تقف فيه العوالم كلها علويها وسفليها ساجدة لله تعالى، خاضعة له، مسبحة بحمده، منقادة إليه سبحانه ويقف الإنسان، هذا المخلوق الضعيف شاذًا في ناموس الكون العظيم كيف لا يسجد العبد لربه وقد سبح لله الحجر والمدر والرمال، والدواب، والشجر، والليل والنهار، والظلمات والأنوار، والجنة والنار، والزمان والمكان، والعنصر والأركان، والأرواح والأجسام؟؟** ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

ولله في كل مخلوقاته دليل على وحدانيته وكمالاته سبحانه ومن ذلك التأمل في سلوك الحيوانات وغرائزها العجيبة التي تبعث على الدهشة والانبهار، وتوقظ العقل من غفلته ليتأمل قدرة الله - تعالى - في هذا العالم البديع ومما يبعث على الدهشة أن يجد الباحث انحرافًا خطيرًا في التفسيرات المادية لهذه الغرائز الباهرة التي أودعها الله تعالى في هذه المخلوقات المسبحة له، الساجدة بين يديه، إلا أن يكون تفسيرًا ملحدًا يغطي حقائق الوجود، ويأبى الخضوع لباعث الفطرة، وشاهد الكون العظيم.

وفي هذا المقال نتجوّل في سياحة إيمانية داخل هذا العالم البديع لنستخرج دلائل الوحدانية المشرقة في سلوك هذه الكائنات وغرائزها العجيبة.

في مساء السادس من أيار لعام ١٩٧٦م وفي مدينة (فريولي) الإيطالية ارتفعت أصوات الحيوانات فجأة ودونما سبب ظاهر: الكلاب تنبح وتجري هنا وهناك، القطط مذعورة، الفئران تملأ الأزقة، الجياد والأبقار هائجة وعصبية، ويحاول أكثرها أن يسحب أربطته الطيور تسعى ضاربة بأجنحتها ومطلقة صرخات تبدي منها الفزع، وكأن شيئًا ما يستثير هذه الحيوانات ويدفعها لهذا التصرف العجيب لم يصدق سكان المنطقة ما رأوه بأعينهم، وصار ذلك محور حديثهم تلك الليلة وتمضي الساعات بطيئة، وما إن حلّت الساعة التاسعة من تلك الليلة حتى شعر السكان بالأرض تميد من تحت أقدامهم، وما هي إلا ثوان معدودات حتى ضرب زلزال عظيم المنطقة مخلفًا وراءه ما يزيد على ألف قتيل من السكان!.

وحادثة أخرى مماثلة في (سان فرناندو) حيث اطّلع المحللون على تقرير سبق الكارثة هناك وفيه: (جيوش من الجرذان تملأ شوراع بلدة (سان فرناندو) - بالقرب من لوس أنجلوس الأمريكية - مع أن الناس كانوا يفترضون أنّ بلدتهم تخلو تمامًا من الجرذان وفي اليوم التالي تصيب هزة عنيفة وادي (سان فرناندو) وتؤدي إلى كارثة بيئية.

لقد أثارت هذه الحوادث وأمثالها اهتمام ودراسة عدد من العلماء، خاصة وأنها تتكرر بين فترة وأخرى، لقد أصبح الأمر جليًا واضحًا في حتمية وجود غرائز خفية للحيوانات تزوّدها بنوع استشعار لا يدركه البشر بحواسهم المحدودة وأجهزتهم المعقدة الحديثة.

من أولئك العلماء الذي اهتموا بهذه الظاهرة (هلموت تريبوش) الأستاذ بجامعة برلين الذي قام باستثارة الاهتمام بهذا الموضوع قديمًا - في عام ١٩٧٦م - وأخذ يجمع ما تناثر هنا وهناك من أحداث مماثلة وقعت عبر التاريخ، وما سبق بعض الكوارث الزلزالية - أمثال زلزال (هيليس) اليونانية، وزلزال (لشبونة) المدمّر - من ردود فعل (غريزية) للحيوانات تشبه إلى حد

كبير ما حدث قبيل كوارث معاصرة ومماثلة كزلزال مصر الأخير - ١٩٩٢م - عندما اضطربت الحيوانات في حديقة الحيوان بالجيزة قبل عشرين دقيقة من الزلزال المدمّر، وما شابه تلك الحالات في (سان فرانسيسكو) وغيرها.

بعد ذلك بقليل - وبالتحديد في عام ١٩٧٧م - عقد في الولايات المتحدة الأمريكية مؤتمر علمي اشترك فيه عدد من العلماء من مختلف التخصصات وأهمها علوم الأرض والحياة، لدراسة إمكانية استخدام الحشرات والحيوانات في التنبؤ عن قرب وقوع الزلازل! وقد تمّ رصد الحالات التي سجّلت أثناء المتابعة فلم يحدث أن سجلت حالة واحدة لم يصدق فيها إنذار تلك الحيوانات عبر تصرفها الملحوظ قبل الكارثة، وبالفعل أقيمت أول مستعمرة من نوعها في التاريخ تضم العديد من الحيوانات والحشرات، والهدف الذي أنشئت من أجله هو دراسة تصرف هذه الحيوانات وردود أفعالها كإشارات لكوارث قريبة قادمة!

لقد بات اليابانيون يدركون - بعد تعرّض اليابان للعديد من الهزات الأرضية - أن تصرف (سمك الزينة) يفوق في هذا المجال أكثر آلات الرصد دقة، فقبل وقوع الزلزال بساعات يصاب هذا النوع من الأسماك بحالات غريبة من اضطراب في السلوك وذعر، ثم تأخذ بالدوران والاندفاع داخل أحواضها اندفاعًا جنونيًا !!

وكلما قرأت عن هذه الحقائق العلمية الواضحة وغيرها أظل أتفكر مليًا فيما سطرته كتب سلفنا الصالح حول هذا الأمر أو رووه من أحاديث ومشاهدات، ومن ذلك ما ورد في صحيح البخاري - مثلاً - عن عائشة - رضي الله عنها - حين قالت: (دخلَتْ عليّ عجوزان من عُجُز يهود المدينة، فقالتا لي: إن أهل القبور يعذبون في قبورهم! فكذّبتهما ولم أنعم أن أصدقهما، فخرجتا، ودخل عليّ النبيّ - صلى الله عليه وسلم - فقلت: يا رسول الله، إن عجوزين..... وذكرت له الخبر، فقال: (صدقتا، إنهم يعذّبون عذابًا تسمعه البهائم كلها)، فما رأيته بعدُ في صلاة إلا يتعوذ من عذاب القبر(١).

وكم قرأنا عن حوادث عجيبة تحكي جفول بعض الحيوانات عندما تجاوز بعض القبور التي يعذب أصحابها، تمامًا كما كان يشاهد من تصرفاتها قبل وقوع مثل هذه الكوارث البيئية.

وفي السياق ذاته تطالعنا حادثة نادرة من أعجب ما كتب في هذا الباب، وتحكي قصة اضطراب فرس عربي أصيل كان يملكه الصحابي الجليل أسيد بن الحضير - رضي الله عنه - حدث ذلك ذات ليلة صافية من ليالي المدينة النبوية - حرسها الله - لقد كان أسيد - رضي الله عنه - في تلك الليلة يقرأ القرآن خارج بيته - كعادته - بصوت ندي خاشع، وكان بقربه ابنه الصغير يحيى نائمًا، لكن العجيب في تلك الليلة بالذات أنه لاحظ تصرفًا عجيبًا للفرس، إذ كلما قرأ القرآن جالت فرسه وتحركت واضطربت، فإذا سكت سكنت، ثم إذا أعاد القراءة اضطربت أشد من الأولى، وهكذا حتى تكرر ذلك منه ومن الفرس ثلاث مرات، يقول - رضي الله عنه: فانصرفت عن القراءة مشفقًا على ابني يحيى أن تصيبه الفرس، فلما قرّبته مني رفعت رأسي إلى السماء فإذا أنا بمثل الظُّلة البيضاء فيها أمثال المصابيح عرجت إلى السماء حتى توارت عني، لقد اكتشف أن اقتراب تلك الظُّلة البيضاء بلا شك كان السبب في اضطراب الفرس وتحركها، فلما أخبر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عما حدث له البارحة قال له - صلى الله عليه وسلم: (أو تدري ما ذاك؟) قال: لا، قال: (تلك الملائكة دنت لصوتك) الحديث(٢).

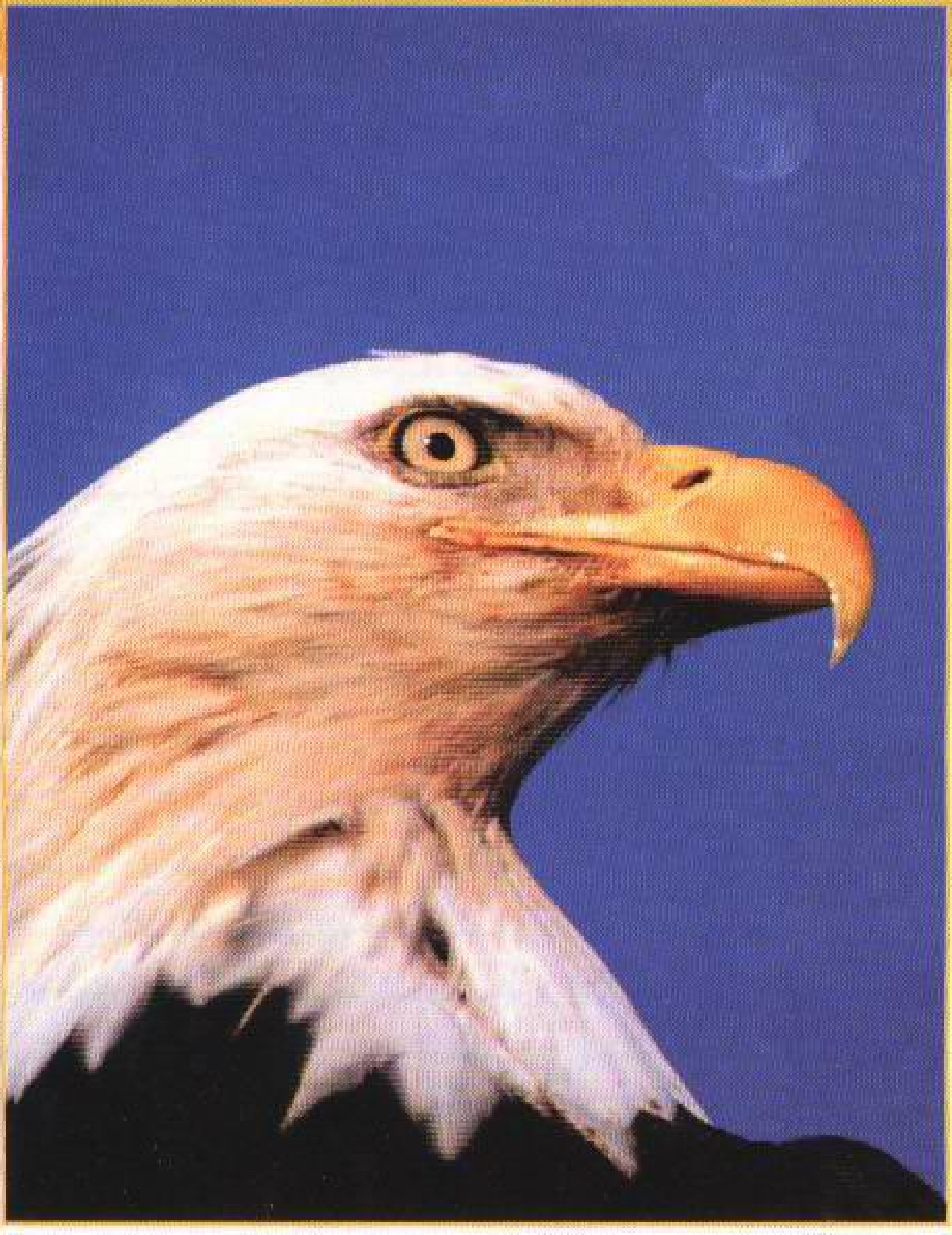

بل لقد صرّح - صلى الله عليه وسلم - في حديث آخر أن لدى بعض الحيوانات مقدرة خارقة على رؤية ما لا يستطيع البشر رؤيته بحواسهم حيث قال - صلى الله عليه وسلم: (إذا سمعتم أصوات الديكة فسلوا الله من فضله فإنها رأت مَلَكًا، وإذا سمعتم نهيق الحمير فتعوّذوا بالله من الشيطان، فإنها رأت شيطانًا)(٣).

إن هذه التصرفات - بلا شك - تنم عن وجود غرائز كامنة مركّبة في هذه الحيوانات، وهي التي تدفعها إلى استشعار ما قد يعجز البشر عن إدراكه بحواسهم الضعيفة، ولقد تباينت آراء العلماء المتخصصين عند دراسة أمثال هذه السلوكيات والغرائز التي تنم عن قدرات (خارقة)!! فهناك رأي مفاده أن هذا السلوك يعود إلى التقلبات في الحقول المغناطيسية، ووجود استجابة قوية عند بعض الحيوانات في هذا المجال، ولكن ثبت بالمشاهدة والمتابعة المستمرة عدم استقرار هذا العامل كمعيار ثابت يمكن أن تفسر به سلوكيات بعض الحيوانات في ظروف مماثلة، كما حدث - مثلاً - داخل عربات قطار في محطة للشحن بإيطاليا، كانت هذه العربات مصنوعة من صفائح فولاذية رقيقة يوجد بداخلها حيوانات محتجزة، ومع ذلك لم يؤثر ذلك على مقدرتها بالرغم من كون المكان محكمًا ومعزولاً ضد التقلبات المغناطيسية والموجات الكهربائية.

ويُرجِعُ البعض الآخر هذه الغريزة إلى قوة خارقة في حاسة السمع لدى هذه الحيوانات والحشرات، بحيث تسمع التحركات - التي تسبق الزلزال - في باطن الأرض، ويرجّح البعض نظرية الحساسية المفرطة لدى هذه الحيوانات لمعرفة التغيير الذي يحدث

على الصخور قبل الزلزال.

بينما يفضل البعض ـ ببساطة ـ أن ينسب هذه التصرفات الذكية الخارقة إلى (الغريزة العمياء)!! كما ذكر بعضهم صراحة في مجلة عربية سيّارة أثناء حديثه عن هذه الغريزة الباهرة لدى الحيوانات؛ حيث قال: (الغريزة فعالية عمياء)؛ لأنها تقوم بعملها (دون أن يكون لفاعليتها أي غرض أو هدف)؟! وكثيرًا ما يعلّق ـ بعد سرد شواهد حية في الموضوع ـ بقوله: (لاشك بأن هذه الغرائز عمياء، وهي قوى توجّه سلوك هذه الحيوانات)! وهذا يتطلب من القارئ البصير وقفة متأملة ناقدة لدحض مثل هذا التفسير الذي يفضل صاحبه الهروب من الحقائق الثابتة بمثل هذا الكلام بدلاً من التأمل فيها، وإدراك سر عظيم من أسرار الوجود حوله تزيده إيمانًا وثباتًا، والدليل على ذلك أن هذه السلوكيات الغريزية وأمثالها غير قاصرة عند حد استشعار الزلازل ونحوها من الكوارث البيئية فحسب، بل تتجاوزها إلى سلوكيات أخرى فذة وغريبة لا تتصل البتة بالظروف البيئية أحيانًا!

أما دعوى (العشوائية) و(العمى) الذي لا هدف من ورائه، ولا محرك له في وصف هذه الغرائز فإنها دعوى يردها النظر البسيط في روعة مثل تلك التصرفات السلوكية التي تقوم بها تلك الكائنات، ولو تأمل فقط في طريقة بناء الطائر الصغير لعشه الرائع لتساءل طويلاً عن القوة المحركة لهذه الغريزة الواعية! فمن الذي علّم هذا الطير ذلك الفن الرفيع؟ ولماذا تتشابه جميع الأعشاش التي تبنيها الطيور من هذا النوع؟ إذا قلت: إنها الغريزة ـ المجردة ـ فإن ذلك قد يُعَدّ مخرجًا من السؤال، غير أنها في الواقع تعد إجابة مريحة، ولكن قاصرة، فما هي هذه الغرائز؟ ومن محركها الحقيقي؟ وما هي ماهيتها، ومعالمها؟ أفليس من المنطق، ومن الإنصاف أن نرى آثار قدرة الله ـ تعالى ـ تتجلّى في سلوكيات هذه الكائنات التي خلقها فسوّاها وفقًا لقوانين وسنن خاصة لا نكاد ندرك من كنهها شيئًا؟

إنه الله القدير الذي تظهر آثار قدرته، ومعالم حكمته، ومظاهر رحمته من حولنا، إنه الله الذي خلق الكون وحفظه، وليس ذلك فحسب، بل هو الذي سخره لهذا المخلوق البشري الذي كرمه من بين سائر المخلوقات ، أفليس هذا الجواب المريح إذن أَوْلَى وأحرى بهذا الإنسان الجاحد؟ إن ذلك هو ما توصل إليه كثير من العلماء المتخصصين في سلوكيات الكائنات الحية، ممن آمنوا بالله العظيم ـ سبحانه ـ من خلال هذا النظر المجرد الذي يوقد شعلة الإيمان ويحرك كوامن الفطرة في نفوسهم، إذا كان هذا الإيمان العميق بالله ـ سبحانه ـ يتولد في أعماق هؤلاء العلماء الماديين من جرّاء تتبع السلوك العجيب لهذا الطائر الصغير، بل من خلال دراسة سلوك واحد متواضع من سلوكياته ألا وهو طريقته في بناء عشه التي لا تكاد تختلف من طائر إلى آخر من النوع ذاته، بل قد يؤخذ هذا الطائر صغيرًا من عشه، لا يدرك شيئًا مما يحيط به، ثم عندما يعزل تمامًا عن كل المؤثرات البيئية المحيطة ويكبر يصنع لنفسه عشًا على نمط نوعه تمامًا!! فأي قدرة عليمة تكمن خلف تلك الغرائز الواعية؟! إذا كان هذا الإيمان العميق بالله الخالق العليم ـ سبحانه ـ يشرق في قلوبنا من خلال التأمل في هذا السلوك العجيب من هذا الطائر الصغير، فدعونا إذن نقوم بجولة إيمانية أكثر إثارة، نتأمل فيها آثار قدرة ربنا ـ سبحانه ـ عبر النظر في سلوكيات الكائنات الحية من حولنا، عسى أن نتأدب معه ونحن نفسر هذه الغرائز الحيوانية الواعية مرة أخرى.

لقد زوّد الخالق الحكيم ـ سبحانه ـ هذه الكائنات بمثل تلك الغرائز بطريقة تبعث على الدهشة والإعجاب معًا، حتى إنك لتنظر في تصرّف العنكبوت مثلاً وهو يقيم عملاً هندسيًا يحار العقل في فهم خطواته، ثم تتعجب بعد ذلك من متانته وصموده بالرغم من رقته وخفته!! إن هذه الحشرة الصغيرة تنسج خيوطها بصورة تختلف كل مرة مع الوضع الذي تجد نفسها فيه، وبيوتها مصنوعة بدقة متناهية تأخذ بالألباب، ذلك أنها تتقيد بالمسافات البينية، وتراعي انفراج الزوايا في شكل هندسي رائع عبر نسيج من الحرير يبلغ قطره ثلاثة أعشار الميكرون(٤)، وهو أدق وأرق وأخف وأمتن من حرير دودة القز، ويخرج من مغازل العنكبوت التي فيها عدد كبير من الأنابيب الغازلة قد يصل في بعض العناكب إلى ألف أنبوب؟! ونظرًا لأنه أدق خيط عرف في تاريخ البشرية فإنه يُعَدّ حاليًا للاستخدام في صنع الأجهزة البصرية وخياطة جراحاتها.

وتضرب لنا أسراب الطيور المهاجرة مثالاً فريدًا آخر لا يقل بهجة وروعة عن ذكاء تلك الغرائز التي ركبها الله ـ تعالى ـ في هذه الطيور، ذلك أنها تبدأ في هجرتها الجماعية عندما تستشعر اقتراب موسم البرد ـ وبخاصة طائر السنونو ـ فتبدأ هذه الطيور رحلتها الطويلة من البلاد الباردة إلى البلاد الحارة على هيئة أسراب جماعية تحلّق معًا في السماء، وقد تقطع في غالب الأحيان نحو ألف ميل فوق عرض البحار، ولكنها مع ذلك لا تضلّ طريقها أبدًا مهما كانت قسوة الظروف الجوية، بل إن طائر السنونو يحركه شعور خفي بضرورة هذه الهجرة، ويلازمه ذلك الشعور حتى عندما يُحبَس في مكان دافئ في موسم هجرته المعتاد، وكأن هناك دافعًا من الداخل يشعره باقتراب موسم البرد.

وهناك لغز أعجب من هذا حيّر العلماء طويلاً هو ما يتكرر سنويًا مع

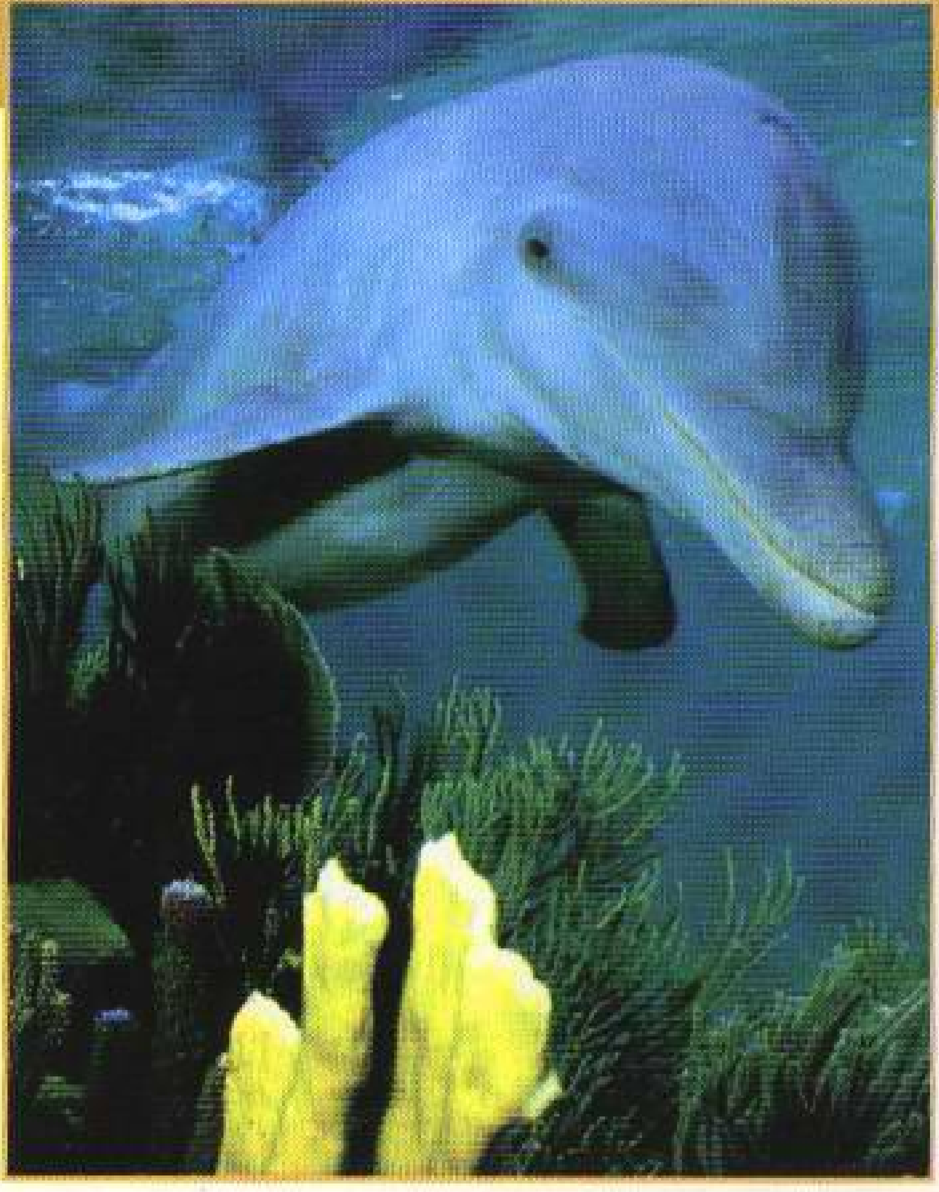

ثعابين الماء التي تسلك طريق هجرتها الطويل عند اكتمال نموها واقتراب موسم التزاوج، فتراها في وقت محدد من العام تتجمّع من مختلف البرك والأنهار لتهاجر معًا قاطعة آلاف الأميال في المحيط قاصدة إلى الأعماق السحيقة، وهناك تبيض ثم تموت!! ولا يزال هذا اللغز يدور في أذهان المهتمين بهذه الظاهرة، إذ ما هو المحرّك لها في سلوك هذا التصرف الغريب الذي يدفعها جميعًا - في وقت واحد - لتموت في مكان ناءٍ عن موطنها الأصلي، بعد أن تضع بيضها؟! ولم يعثر على جواب يفسّر هذه الظاهرة حتى الآن.

وتتجلى الحكمة والقدرة العظيمة - لكن بوضوح أكثر وبصورة مدهشة لا يدرك كنهها العقل البشري القاصر - في سلوك الصغار فيما بعد؛ ذلك أن هذه الصغار - بعد أن تخرج من البيض - لا تملك أي وسيلة لتعرف بها أي شيء من حولها سوى أن تعود أدراجها، وتسلك الطريق نفسه الذي جاءت منه أمهاتها، فتقاوم في سبيل ذلك التيارات القوية والأمواج العاتية المتلاطمة وتقطع كل هذه المسافات الطويلة التي تعجز عن تحملها أجسامها الصغيرة، ثم تتوزع إلى كل نهر أو بحيرة أو بركة صغيرة في موطنها الأصلي، ولهذا يظل كل جزء من الماء آهلاً بثعابين البحار!!

فمن أودع فيها تلك الرغبة والعزيمة، ومن هداها لسلوك هذا الطريق الطويل حتى تعود إلى بيئتها الأصلية؟ إن الغرائز (العمياء) بذاتها تعجز عن هذا السلوك الباهر بلا ريب.

ولك أن تتفكر في خصيصة أخرى تتميز بها تلك السلوكيات الغريزية لدى هذه الكائنات؛ ألا وهو (التوقيت الزمني) العجيب الذي يحكم سلوكياتها الرائعة، إنه أمر باهر حقًا يدعو للنظر والتأمل، فلو نظرت إلى الطيور المهاجرة بأسرابها الكثيرة لأدركت أن لها وقتًا محددًا من العام للطيران إلى وجهتها المحددة مسبقًا إلى الشمال أو إلى الجنوب، وكل فرد منها عندما تحين ساعة الهجرة ينضمّ إلى سربه، ثم تهاجر جميعًا في يوم واحد يكاد أن يكون معيّنًا كل سنة!

بل إن دقة هذا التوقيت وروعته تبدو جليًا في حياة الجراد؛ وهو أمر أعجب

يحار منه العقل في إدراك تلك الدقة المتناهية التي تبدو لأول وهلة وكأنها ضرب من الخيال إذ لا يكاد موعد خروج الصغار من البيض - بعد سنوات طويلة من الظلمة في جوف الأرض - يتقدم أو يتأخر!.

وقد قرأت أنه وجد في ولاية إنجلاند الأمريكية - وبعد دراسة لموسم التكاثر عند الجراد - أن الجراد البالغ من العمر سبع عشرة سنة يغادر شقوقه تحت الأرض - حيث عاش في ظلام دامس مع تغير طفيف في درجة الحرارة - ويظهر فجأة بالملايين في شهر مايو من سنته السابعة عشرة، وقد يتخلف بعض المتعثر عن رفاقه - بطبيعة الحال - ولكن الكثرة الساحقة تنضج بعد سنوات الظلام تلك، وتضبط موعد ظهورها باليوم تقريبًا دون سابقة ترشدها!

وليس هذا هو كل ما يتعلق بذلك التوقيت الدقيق الذي يُسَيِّر تلك الغرائز، بل إن هناك سلوكيات متكررة - قد لا تدرك بمجرد النظر العابر - بينما تكمن من ورائها معادلات ثابتة لا تتغير باستمرار، ولعل أروع مثال لذلك السلوك الغريزي يتمثل في تصرف نوع من صرّار الليل الذي يصر عدة مرات في الدقيقة الواحدة تختلف دائمًا باختلاف درجة الحرارة المحيطة!! ولما أُحصيَت مرّات صريرها وجد أن هناك سرًا مذهلاً يكمن وراء ذلك الاختلاف في مرّات الصرير، ذلك أنها تسجل درجة الحرارة بالضبط مع فارق درجتين فقط!! ومع تكرار المتابعة والرصد كانت النتيجة التي تم التوصل إليها ثابتة دائمًا على مدار ثمانية عشر يومًا!! إنها قدرة الله - تعالى - تظهر لكل من تأمل وتفكر في الكون من حوله.

وإذا جاوزنا هذا السر العظيم من أسرار التوقيت الزمني لدى تلك الكائنات وتأملنا في طرائق الاتصال والالتقاء بين كثير من الحيوانات والحشرات لوجدنا نظامًا دقيقًا آخر يحكم تلك السلوكيات الغريزية التي لا تختلف بحال من الأحوال، ويعجز البشر عن مشاهدتها فضلاً عن وصفها وتحليلها.

إن أظهر لغة للتفاهم بين بني البشر - كما نعلم - هي لغة الكلام التي لا بد من تعلّمها منذ الصغر ليسهل التفاهم ويحصل الاتصال الاجتماعي فيما بعد، ولكن هذه اللغة تختفي تمامًا عند غير بني البشر - من الحيوانات و الحشرات المختلفة - ليحلّ محلها قدرات أخرى (خارقة) تساعد تلك الكائنات على التفاهم والتخاطب، وتختلف لغة التفاهم هذه باختلاف النوع والصنف والطائفة في الأجناس الواحدة، فالنمل العادي مثلاً يقوم أفراده بنقل انفعالاتهم إلى رفاقهم بواسطة تلامس قرون الاستشعار! بينما في عالم النحل نجد لغة أخرى لكنها أعقد وأدق في التفاهم بين الأفراد داخل الخلية وخارجها، فإذا اكتشفت النحلة أزهارًا متميّزة برائحتها وألوانها فإن لها طريقة أخرى للتخاطب ونقل الانفعالات غير النمل العادي، فهي ترشد بقية أفراد مملكتها عن طريق رقصات معينة تصدرها هذه النحلة يدرك مغزاها ومدلولاتها باقي النحل في الخلية لأنها مزوّدة بمقدرة هائلة على فك الشفرات الحركية وإدراك معانيها وأرقامها ووجهتها وما يتعلق بها، والتي يحتاج الإنسان إلى أن يفصح عنها بلغة الكلام في أسلوب هندسي أحيانًا كأن يقول لرفيقه - مثلاً -: (طِر في خط مستقيم، بانحراف عشرين درجة على يسار الشمس، وبعد مائتي متر ستجد مساحة من أزهار البرتقال)!.

ومعلوم أن النحلة مهما ابتعدت عن خليتها فإن بإمكانها أن تعثر عليها مهما اشتدت الريح في هبوبها؛ ذلك أن النحل لا يرى الأشياء كما نراها نحن فهو لا تجذبه الأزهار الزاهية التي نراها، ولكنه يراها بالضوء فوق البنفسجي الذي يجعلها أكثر جمالاً في نظره، ولهذا فقد يعيش النحل في مناطق يكسوها السحاب معظم شهور السنة ولا يؤثر ذلك في عمله إطلاقًا.

أما أسلوب الاتصال بين أفراد البعوض فيختلف نوعًا ما، لقد أكّد العلماء الدارسون لحياة البعوض أن قرون الاستشعار المثبّتة على رأس كل بعوضة والمزوّدة بعدد هائل من الشعيرات الدقيقة الممتدة من رأس الذكر يمكنها التقاط الذبذبات الصوتية التي تحدثها الأنثى من مسافات بعيدة، لتفوق في ذلك أدق الأجهزة اللاسلكية التي اخترعها الإنسان على مدار تجاربه البشرية، والعجيب أن هذه الشعيرات لا تلتقط سوى إشارات أنثى البعوض فقط على الرغم من وجود أصوات عديدة أخرى في الجو تختلط فيها أصوات البشر بأصوات الطيور ومكبرات الصوت وغيرها! علمًا بأن الخالق . جل وعلا . قد زوّد قرنَي الاستشعار اللذين تمتلكهما البعوضة بمقدرة هائلة، ويكفي أن نعلم أن ذلك الطنين الذي نسمعه وتصدره البعوضة يحدث نتيجة ما يقارب ثلاثمائة ذبذبة في الثانية عن طريق اهتزاز قرني الاستشعار!!

أما الفراشة فمهما حملتها الريح فإنها لا تلبث أن ترسل إشارة خفية يستجيب لها باقي الأفراد على مسافة بعيدة، وتصل الرسالة مهما أحدثت من روائح في سبيل تضليلها.

وكما تختلف طريقة التفاهم والتخاطب عند هذه الكائنات تختلف مواقع السمع والإحساس فيها كذلك، تبعًا لأنواعها وطوائفها، فقد توجد في أماكن غريبة من الجسم كأن تكون في رِجْل الحشرة أو في منطقة البطن منها، وهكذا فالجندبة الأمريكية (katy did) تحك ساقيها أو جناحيها معًا فيسمع صريرها الحاد في الليلة الساكنة على مسافة نصف ميل، وذلك عن طريق هزّها لكمية هائلة من الهواء من أجل إخراج ذلك الصوت القوي!

من جهة أخرى تستخدم بعض الحشرات التي تنشط ليلاً وسائل أخرى عن طريق إشارات ضوئية ذات تردد معين. كما هو الحال في بعض الحشرات المضيئة. وهذه الإشارات ذات دلالة يفهمها أفراد النوع نفسه.

إن الإنسان ليصاب بالعجز تمامًا عن الإبصار إذا ما حلّ الظلام الدامس، ولكنه لو كان على ظهر حصانه العجوز فإنه بإمكانه أن يصل إلى منزله بسلام مهما اشتدت ظلمة الليل؛ لأن ذلك الحصان تمكن من الرؤية في ذلك الليل البهيم عن طريق ملاحظة اختلاف درجة الحرارة في الطريق وعلى جانبيه بعينين تأثرتا قليلاً بالأشعة الحمراء في الطريق، وكذلك البومة التي تستطيع أن تبصر الفأر الدافئ وهو يجري على الشعب البارد مهما تكن ظلمة الليل.

أما الخفاش فهو جندي الظلام الذي ينشط في الليل وينام في النهار ولا يسكن إلا الكهوف والأقبية المظلمة؛ إذ إنه ضعيف البصر، وسريع الطيران، ومع ذلك لا يصطدم بأي عائق أمامه، سواءٌ أكان جدارًا أو عمودًا أو غيره، ونتيجة للتجارب والملاحظات فقد وجد أن هذا الحيوان يُصدر أصواتًا على شكل نبضات ذات ذبذبات عالية تقارب مائة ألف ذبذبة في الثانية! وهذه الأصوات فوق مستوى سمع الإنسان.

وهذه النبضات الصوتية . التي يرسلها الوطواط (الخفاش) . إذا اصطدمت بشيء عاد رجعها إلى سمعه فأدرك أن أمامه ما يصطدم به مع الشعور بمقدار سطحه، فينعطف عنه بسرعة ولا يصطدم به.

لا شك بعد كل هذا أن مثل تلك السلوكيات الفذة ليست عمياء تحركها العشوائية والعبث؛ لأن من أخص خصائصها الدقة والتوقيت والانضباط، على الرغم من تتابعها في الصنف ذاته، وفي النوع من الجنس المشترك على مدار الحياة.

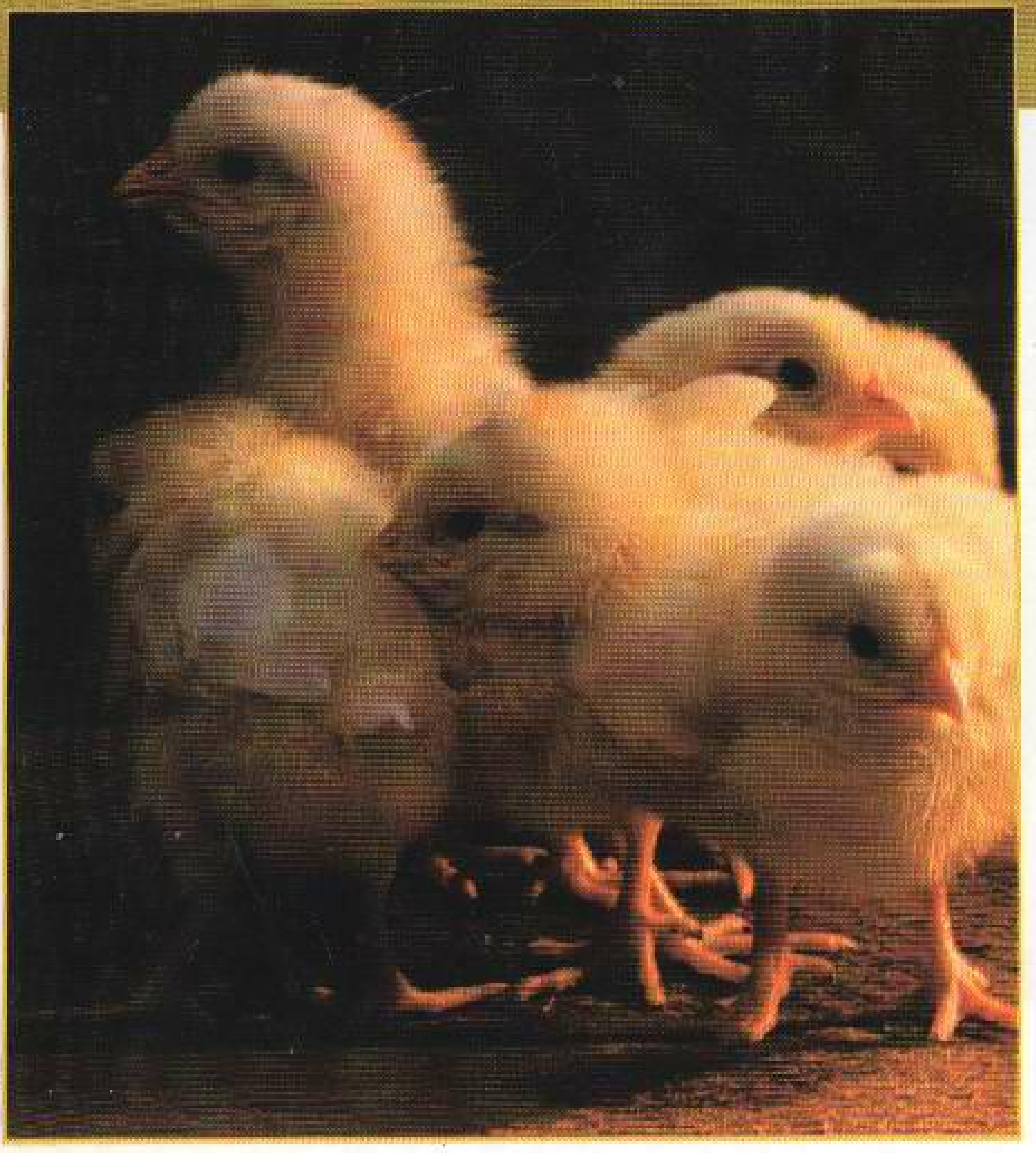

إن قدرة الله العليم الحكيم تتجلّى بوضوح من خلال النظر في هذه السلوكيات (الغريزية) ولا تزال . حتى الآن . تقدّم لها الفرضيات العلمية المبنية على المشاهدة والتجربة في سبيل العثور على تفسير علمي دقيق يحكم هذه الغرائز التي أودعها الخالق . جلت قدرته . في هذه الكائنات وتتوارثها جيلاً بعد جيل!

وهذا ما يدعونا حقًّا إلى التأمل في آثار قدرة الله العظيم من حولنا، عبر النظر في مخلوقاته وآياته المسطورة في صفحات هذا الكون الفسيح، وعندها ندرك الحكمة من أمر الله . تعالى . لعباده بمتابعة النظر، والتفكر في مخلوقاته وآياته، وأخذ العبرة من ذلك، قال . سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[٥].

ولهذا تجد كثيرًا من العلماء الماديين المتخصصين في دراسة علوم الحياة والطبيعة يصرّحون بإيمانهم العميق بالله العظيم بعد أن يروا آثار رحمته وعلمه وقدرته ماثلة أمامهم.

يقول (ميريت ستانلي كونجدن) . وهو عالم طبيعة حاصل على الدكتوراه من جامعة بورتون: (إن جميع ما في الكون يشهد على وجود الله . سبحانه وتعالى . ويدلّ على قدرته وعظمته، وعندما نقوم نحن العلماء بتحليل ظواهر هذا الكون ودراستها، حتى باستخدام الطريقة (الاستدلالية)، فإننا لا نفعل أكثر من ملاحظة آثار أيادي الله وعظمته، ذلك هو الله الذي لا نستطيع أن نصل إليه بالوسائل العلمية المادية وحدها، وليست العلوم إلا دراسة خلق الله وآثار قدرته)، وصدق الله القائل: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

---

١ . صحيح البخاري، كتاب الدعوات/ باب التعوذ من عذاب القبر.
٢ . صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن.
٣ . رواه مسلم وغيره عن أبي هريرة . رضي الله عنه.
٤ . الميكرون جزء من ألف جزء من المليمتر.
٥ . سورة آل عمران، الآيتان ١٩٠ و١٩١.